زيد الشهيد

ICH LIEBE DICH

إش ليبه دش

قصص قصيرة

دار تراسيم

زيد الشهيد
اسم الكتاب : إش ليبه دِش – قصص قصيرة
الطبعة الاولى
دار تراسيم
عدد النسخ : 1000
سنة الطبع : 2008 م

دار تراسيم
للطباعة والنشر والتوزيع

زيد الشهيد

Ich Liebe Dich

إش ليبـه دِش

قصص قصيرة

الفهرست

المقدمة

1- أبو طير

2- تضرُّعاتٌ واعدة

3- أُحبك Ich Liebe Dich

4- احتراقاتٌ صامتة

5- تحت غيمةِ النسيان

6- عَبيرُ الحلـم

7- مساءُ الاحتراقات

تراسيمُ الذاكرة .. جغرافيةُ الأنا

لكِ يا منازلَ في القلوبِ منازلُ أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهِلُ

ثمّةَ ما يجيزُ للذاكرةِ افتضاض ضَباب الأعوام لتمنح اللوعة الخبيئة في الأعماق شيئاً من الانسفاح على يباب العمر ..
ثمّةَ ما يدَع الروح تتبارى من أجل ذكرى هاربة تكيننت يوماً عند شاطىء العمر الزاحف وصار القبضُ عليها كالاستلقاء على صدرِ حبيب رؤوم ، أو كالتبتُّل عند ربٍّ قال لا تنسوني .
وهو السردُ يغدو أبجديةَ القلب في تسجيل بوحه فيتشكّل أيقونات خطابية تحكي خطى شخوص استلها السارد من دروب خلقه ودفع بها على تراتبية زمكانية لتحفل هذه الشخوص بالمصداقية لدى المتلقي ، وحينذاك يلجُّ هذا الأخير فضاءَ الحياة المُختلَقة فتبدو تلك الحياة كما لو كانت تمتلك مفاصل وجودها الحي ، الحق .
لقد ولدت نصوصُ هذه المجموعة مع ابتداءات وصولي إلى اليمن وعملي في سلك التدريس للفترة من 1994 إلى 1997 . فكان لصنعاء نصّان (عبير الحلم) و (مساء الاحتراقات) وقد كتبتهما خريفَ عام 1996 فيما توزعت النصوص الأخرى على ريف عمران . فقد تم التعاقد معي في نهاية عام 1994 لأول مرة وعينت في قرية (ذيبين) . وذيبين قريةٌ تقع بين جبلين شاهقين هما (كِحل) و (الذروة) أهلها اصلاء كأهل اليمن جميعاً يتعطرون بتراب الطيبة ويرتدون غيوم البراءة . أول ما لفت انتباهي قبور دارسة تحتل تلاًّ ما زال يحتفظ بهويته القروية فعلمتُ غب السؤال أنها ليهود كانوا يقطنون معهم في القرية ويتقاسمون رزق الله بلا فارق ولا استعلاء ...
في ذيبين ولدت نصوص (تضرعات واعدة) و (إش ليبه دش) و (أبو طير) وقد جاءت على خلفية حكايات كان يلقيها على مسمعي زملائي المدرسون من القرية لعلَّ منهم صالح غابش وعلي شرامة وخالد حنش وعسكر وفضل ؛ وآخرون خانتني الذاكرة في استرجاع أسمائهم لكنَّ وجوهَهم السمحة وبسماتهم المنفتحة لما تزل تتمثل أمامي الآن فكانت " حورية " في قصة (تضرعات واعدة) وهي شخصية متوهجة في ذاكرة أهالي ذيبين ؛ وكان " جبران " وهو طالب ثانوية كان من ضمن طلبة السادس الثانوي الذي أقدم جهدي الدراسي إليهم وقد وجدت أن يكون بطلاً لقصة (ICH LIEBE DICH) مع "لورا " الالمانية حيث ثلاث ممرضات ألمانيات كنَّ يعملن في مستوصف ذيبين الذي تقدم ألمانيا مساعداته في الكادر الطبي والمختبري والدوائي ومزجت في القصة بين جبران و لورا ". ادخلتهما في حب وتركتهما يأخذان مداهما الإنساني بينما تركت للقراء والنقاد اكتشاف شفرة التمازج بين حضارتين وافرازات ونتائج هذا التمازج . وفي العام الدراسي الثاني 1995 انتقلت إلى قرية (بلسن) مسقط رأس مجاهد أبو شوارب نائب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح . وهناك كتبت عدداً من القصص التي لم تضمها المجموعة وضمتها في ما بعد مجموعة (فضاءات التيه) التي صدرت في أسبانيا عام 2004 وكان منها قصص (بعد التحية) إلى جانب كتابة قصص قصيرة جداً مثل (غوايات) و(أمّهات) التي احتوتها مجموعة (حكايات عن الغرف المعلَّقة) الصادرة في عمّان عام 2003 . وفي العام 1996 وجدتُ نفسي في قرية (قاع الشمس) تلك التي كانت تفتقد إلى الكهرباء وتعيش في وهدةٍ ، طريقها ترابي يبعد بحدود عشرة كيلومتر عن الطريق المعبد ألذي يوصل إلى قضاء (عمران) . كان أهلُ القرية مزارعين مسالمين . وكان عليهم النهوض مبكراً إلى حقولهم لذا تراهم حالما تهرب لحظات الغروب يؤوبون إلى النوم

مبكرين أيضاً فلا تبصر ضوءاً ينبعث من بيت أو لقاء يتم في درب. هناك كتبتُ قصّة (الجرثومة) ووضعت فيها اسم " منصور " وهو اسم أحد المدرسين هناك ... وبعد حضور مدرس بديل نُقلتُ من قرية (قاع الشمس) إلى قرية " ينور " الواقعة على الطريق المعبد . في تلك القرية التي كانت تضم مدرسة ذات بناء حديث شيَّدها أهل القرية بأموالهم الخاصة كتبت بعض القصص القصيرة جداً منها (عُزلة) التي تحتويها هذه المجموعة و (وقائع قروية) التي احتوتها مجموعة (حكايات عن الغرف المعلّقة) ومعها كتبت رواية (سبت يا ثلاثاء) التي صدرت عام 2007 عن دار أزمنة في عمّان . وفي هذه القرية كتبت أيضاً العديد من القراءات النقدية .

في اليمن ومنذ اليوم الأول لنزولي أرضها الكريمة استطعتُ بناء علاقات ودية مع أدبائها ومسؤولي الصفحات الثقافية لجرائدها . وكنت معتاداً على حضور الجلسات الثقافية في مقيل الروائي المرحوم زيد مطيع دماج والجلسات الأسبوعية الأدبية التي يقيمها الدكتور عبد العزيز المقالح في مركز الدراسات والبحوث الكائن في شارع بغداد مثلما كنتُ دائم التواصل مع أعضاء اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بمقره الرئيس في " هايل " (لا أريد ذكرَ أسمائهم خشيةَ أن يهرب احدٌ من ذاكرتي فأشعر بالندم بعد ذلك ، لكن فقط سأسمي صديقي القاص محمد الغربي عمران ممثلاً عنهم) .. كانت الجلسات تبعث على الحميمية وتتعالى مع تعالي مفعول القات الذي كنّا نقضمه على إيقاع أحاديثنا المتبادلة التي تنتهي بالرحيل الذهني كلٌّ إلى وجهةٍ تشغله ، وأمرٍ استدعته الذاكرة للتحاور .

لقد طال تأخُر صدور هذا النوع من الافضاء القصصي في كِتاب ، وهي محنة كبيرة نعانيها نحن الكتّاب . محنةٌ لسنا المتسببين في خلقها ورميها على قارعة العدم ؛ لكننا نبقى ننوء بحمل تتبِّعاتها ؛ فهل ستبقى كواهلنا قادرة على حمل هذه المسؤولية والسير بها في درب الصبر الناضب ؟

السماوة
1 /9 / 2007

على ذُرى ذيبين

عبرَ عطفات الخيال
حيثُ شرانقُ الفيضِ الصوفي
ذيبين تغرقُ برذاذِ الشمس
وجبلُ " الذروة " عطوفاً يلاحقُ نشوتَها
وعلى صَخرة " أبو طير " جلسنا .
ننثرُ الرغبةَ عيوناً على أسرفةِ العنب .
رحيلاً ، بحيراتُ الأرضِ المحروثة توّاً
خيالاً ، عرانيصُ الذرة ..
وجوهٌ طرية
تعتمرُ قُبعةَ الذَّهب ، المُصَفَّدِ ..
جلسنا :
بركُ الماءِ الخضراء / صومعةُ الجامع الوحيد /
ماعزٌ يلاحقُ السفوحَ ؛ يتابعُ الكلأ .
عينُ الله فوق ذيبين الغارقة في خثرةِ
ظلالٍ حُلمية ..
هل كنّا نَحلُم .. يا ذيبين ؟

زيد

أبو طيـر

على سقسقةِ عصفورٍ ، أو تغريدِ عندليبٍ ، أو نواحِ فاختةٍ تخلّى عنه الكرى فوجد نفسه منهكاً ، واعضاءه مفككّة . تغمر فمَهُ مرارةٌ بطعم العلقم . آ .. أين أنا ؟! (في غرفةٍ فارغة إلا من سرير يرتمي عليه ، وأرض جرداء بلا بساط ، ونافذتين تطلاّن على وادٍ بعيد) .. آ .. تذكر أنّه قضى وقتاً طويلاً من الليل يئنُّ من ألمٍ انتهزَ فرصة تعبه فراح يغرز نصاله على كلِّ شبرٍ من جسده ، وينزل فتكاً وتجبّراً ، متلذذاً في ما يطلقه من تأوهات .. وتذكَّر أنَّ الطريق كان حجرياً ، ووعراً ، ومتعثراً ؛ وسائق كثير الكلام نقله من مدينة " عمران " إلى " ذيبين " دون أن يلجم لسانه دقيقةً واحدة (السائقُ مُعجبٌ بكون زبونه مدرساً جديداً شاء الحظُّ وجرّةُ قلمٍ واضعِ الملاك أن يكون في هذه القرية التي قال عنها محدثه : " مَكمن الأسرار ، فكن حذِراً في تعاملك مع أهلها ، يا أستاذ ! " .. لم ينفع رجاء الأستاذ في تسلّم مفتاح هذا السر من السائق الذي اكتفى بالقول : " ستذهب إليهم وتكتشفهم بنفسك ! ") .

تلك هي ذيبين من بعيد ...

وركّز بصرهُ : بضعةُ بؤر ضوئية متماوجة ومتناثرة . ذلك هو إذاً المكان الذي سيغدو مستقره وبدء عمله (ذيبين : القرية التي اختارت بيوتاتها على قمّة تلال متجاورة) أول ما طالعه فيها شبح قامة ناهضة كأنها قوام زنجي عملاق يرتدي ثوباً رمادياً ، تحتل أعلى نقطة في هذا المرتفع .... القمر يشيع بضوئه الفضي على الوديان والتلال ، وما يعلوهما من جبال . إلا إنه لم يتبيّن ذلك الهيكل المتعالي جيداً . قال السائق : هذه منارةُ الجامع الرئيسي الوحيد فيها ؛ ومن ذلك الموقع ستكون نقطة شروع بحثك ونهايته في نفس الوقت .

****

الطَّرقاتُ الخفيفةُ على البابِ هي التي انتشلته من استرجاعه أحداث الليلة الفائتة . نهض ، فإذا به أمام رجلٍ يتمنطق حزاماً يتوسطه خنجرٌ معقوف . قصيرُ القامة / أسمرُ الوجه / له عينان سوداوان شرعتا تتفحصانه .

- " أنا فرحان ، عاملُ المدرسة . جئت أسألك إنْ كنت في حاجة إلى شيء ".. ودخل بعفويةِ رجال القرى :
- هنا الحمام – وأشار بيده إلى بابٍ مغلق – وهنا المطبخ ، فيه ما تحتاجه من لوازمِ الطبخ ... مديرُ المدرسة سيأتي بعد قليل . لقد أوصلنا له الخبر أمس حالَ وصولك .

وخطا خارجاً ...

ما أن عاد إلى سريرِه وجلس حتى عادَ الصوتُ الذي ظنَّه سقسقةَ عصفورٍ أو تغريدَ عندليبٍ أو نواحَ فاختةٍ . عاد كرّةً أخرى يشيعُ في الأرجاء .. أحسَّه ينفذ عبر النافذتين والباب التي تركها فرحان مواربةً .. نهض يروم الخروج من الغرفة فواجهته شجرةُ دوم . قال ربما يكون الصوتُ آتٍ من طيرٍ يتّخذ أحدَ أغصانها إطلالة على المكان ، ولكنْ لا شيء . فالصوت يملأُ الفضاء . أتراه يسمعُ حقاً أم هو بقايا خيالاتٍ عالقة في رأسه جرّاء تلك الليلة الثقيلة / البطيئة !!..

كان في حاجة إلى فرحان كي يسأله ، بيد أنَّ الرجلَ لم يعُد ثانيةً .

****

ضحكت الأزهار المتفتحة على روض وجوههم وكشفت فيوضُ عيونِهم النقية ألقَ الدهشة وهي تلاحقه / تتملَّى ملامح وجهه / طول قامته / ملابسه الحضرية . يركِّزون سمعهم على مخارج الكلمات المندفعة من فمه . وإذ يسألهم يصرفون وقتاً قبل الإجابة كأنه ينطق لغةً أخرى تستدعي الفهم أولا ثم الرد . ذلك ما اضطره إلى النطق بعربية فصيحة :

_ ما هذا ؟ .. وأشار إلى خنجرٍ وحزام يشد خصر تلميذ .

_ جمبية ، يا أستاذ .

_ وهذا ؟ ...وأشار إلى كوفية تعتمرها أغلب الرؤوس .

_ سماط ، يا أستاذ .

_ وهذا ؟ .. وأومئ إلى خرقة قماش مشجرة تهبط من الوسط حتى القدمين .

_ فوطة ، يا أستاذ .

_ وما أسمك ، يا أستاذ ؟ .. هتف به تلميذ تدفَّقت على وجهه قسماتُ الشجاعة .

_ زكي .. وجئتكم من العراق .

تعالت في فضاء الصف زغاريد النظرات ، والتقت الوجوه السُّمر تتهامس .

_ أنت أول عراقي يصلنا ، يا أستاذ . اعتدنا المدرسين المصريين والسودانيين .

الصمتُ سرقَ فسحةً يمنحها للنظر . العيون العاجّة بالبراءة والشغف استقبلت دعوةَ المتابعة فتفتَّحت بصورةٍ أشد وراحت تلاحق حركته بينهم . منهم مَن طفق يتمتم باسمه ؛ ومنهم مَن مدَّ كفّاً يتحسس بأصابعه النحيلة ملابسه وآخرون يتملّون قامته فبدا كما لو كان هابطاً من كوكبٍ بعيد سمعوا به ولم يروه .

****

لعدّةِ أيامٍ ظلَ الصوت يتكرر ، مبتدئاً من لحظات الفجر الأولى حتى الصباح . وإذْ أطق الأستاذ أسئلته قيل له : ما تسمعه حقيقة . ذلك قادمٌ من الطير الذي يعتلي ذروة منارة الجامع . بإمكانك الذهاب إلى هناك .

وذهب (ينقل خطوه على منعرج طريق هو مزيج من ترابٍ وحجر ، تمتد على جانبيه بيوت متفرقة تعلو على تراكمات أحجار مكعبة كبيرة تتخلله كوىً مستطيلة وأخرى نوافذ يؤطرها ألمنيوم براق يعكس حداثة بعض البيوت المشيدة . قادته خطاه إلى ساحةٍ مستطيلة تلاصقت فيها دكاكين واطئة الواجهات ، وتقابلت _ إنّه السوق ، ومن ساحته كانت منارة الجامع منتصبة بلونها الحجري المجلي بأعوام القرون وتراكمها . رفع رأسه يحدّق في قمتها) .. شاهده هناك .. " طيرٌ مغزلي الجسم بحجم طائر نورس ورشاقته . يبدو ثابتاً ومستقرّاً . نظراته مصوَّبةٌ إلى جبل عرف في ما بعد أن اسمه " كِحل " ؛ وشاهد أيضا الطير وقد تغير اتجاه نظرته فيكون رأسه قد استدار ليواجه الجبل الشرقي ، في الاتجاه الأقصى ، المعاكس .

_ هل رأيتَ المرقد على يمينك وأنتَ تدخل ؟ .. سأله شيخ الجامع .

_ نعم ؛ وأبهرني فيه الصاج المزخرف ، المؤطر بآياتٍ قرآنية تجلّى فيها الخط الكوفي باهراً .

_ هذا مقامٌ لرجلٍ تقي نذر نفسه لخدمة دينه . قدِمَ إلى هنا قبل تسعة قرون . أول شيءٍ فعله هو بناؤه هذا الجامع ؛ وكان أبوه قد بنى جامعاً آخر في ظَفار ؛ هناك (وأشار إلى قممٍ جبالٍ عالية شمالاً) ستزوره يوماً ما . كلّفَ نفسه مشقة خدمة الناس وكثيراً ما كان يصعد ويهبط إلى جبل ظفار يقدّم الموعظة والمشورة لمن يطلبهما ..آآ !

اتسعت حدقتا الأستاذ . ظنَّ الرجلَ يشكو ألماً ، فكانَ على وشكِ أن يسأله عندما عادَ الشيخُ يواصل الحديث :

_ في ليلةٍ تحاورت فيها أذنابُ الشيطان وتراقصت لحدثٍ سيكون لها يدٌ فيه . نالت منه العيون الذئبية فلاحقته حتى أحدثت الكارثة .

عن أيَّةِ كارثةٍ يتحدث هذا الشيخ ؟ وما الذي يرمي إليه ؟ بدا كلُّ شيءٍ مبهماً وغامضاً لدى المستمع . وكان على وشك أن يُبلغ المتحدث بعدم فهمِ ما يقول عندما واصل :

_ " تضرج ، يا ولدي الجسدُ الطاهر بسيفِ الغدر . قتلوه ! ظلت الجثة على الأرض لعدة أيامٍ . لا أحد يدنو منها . وعندما عزمَ نفرٌ من المارّة على حمله وانتشالها فوجئوا بتشبثها والتصاقها بالأرض . ذك ما جعل الناس في حيرةٍ واستغراب . زاد هذا المشهد من عظمته وعظُمَ حنقُ الناس على قاتليه؛ إلى أن حضرَ بعضٌ من أهل ذيبين . دنو منه ثم امتدت أياديهم فرفعته

بخفَّةِ طير . كان راضياً عنهم / راغباً بهم . حملوه ودفنوه إلى جانب هذه الأرض التي شيدها جامعاً ... منذ ذلك اليوم صار قبرُهُ مزاراً واسماً يُتَبارك به بينما وقف الطيرُ الذي تشاهده الآن فوقَ المنارة منذ يوم دفنه . قيل أنه في اللحظة التي صعدت روحه قتيلةً شوهد هذا الطير الصائت لأول مرةٍ على صخرة بيضاء يطلق صوتاً متواصلاً . فتارةً تسمعه سقسقةِ عصفور ، وتارةً تغريد عندليب . "

صمتَ قليلاً ؛ وبدا كأنه يسترجع أشياءَ تبددت في ذاكرته فسعى الآن إلى إعادتها ؛ ثم :

_ إلاّ مرةً واحدة . أقصد زمناً لا ندري كم استمر ، لكنه ليس بطويل فوجئ الناس بغياب الطير واحتلال غراب أسود مكانه .

ماجت الحيرة في عين الأستاذ . والاندهاش رسم ملامح غامضة . الشيخ المواصل حديثة اكتشف ذلك جلياً فلم يتعسَّر لديه الآمر . إنَّ كلَّ الذين حدثهم عن ذلك أظهروا تلك المسحة من الغرابة . لأنَّ ما يبوح به أقرب إلى الخيال . بيد أنَ البقاء في ذيبين لأيام سيزيل شيئاً فأشياءً تأثيرات هذا الإبهام . وإذا كان الأستاذ الشاب يحتفظ بقصص غرائبية قرأها في مجلاتٍ أو صحفٍ وخزّنها في ذاكرته فليضيف هذه الحكاية إلى غيرها .

_ السلام عليكم .

وارتفعت العيون فأعقبها الرد :

_ اجلس يا حميد الباشا . قالها الشيخ . وعاد يواصل حديثه مشيراً إلى الجالس الجديد :

_ هذا الرجل له صوتُ في الشهادة على ما أحكي .

اقترب حميد حذِراً ؛ وبعينين يشوبهما حولٌ ظاهر طفقَ يتفحص الأستاذ .

_ اجلس يا حميد ! .. ألا تعرف . الأستاذ صار واحداً منّا .. اعذره ، يا أستاذ .

****

ها أنتَ ترى ذيبين قريةً تنأى عن طرق العابرين ؛ وقليلاً ما يطأ أرضها غريب . وإنْ حدث ذلك فلأيامٍ معدودات ثم يكون مآله الرحيل . السنوات الأربعون التي تراكمت وأثقلت كواهلنا وتركتنا نتعكّز على الذكرى التي هي الحد الفاصل في حكايتنا معك ... رجلٌ طويل القامة ، أحمر الوجه . له عينان زرقاوان . شعرُ رأسه وشاربيه ولحيته بلون الحنّاء قدم اليها . أظهر حسنَ معرفةٍ بالقرية ، وصلة قرابة . مدَّ يده مصافحاً متفوّهاً بأسمائهم . الوجوه طفحت بالود ، والرضا ، ورغبة وجوده . الصغار نالوا منه العطف ؛ والكبار حصدوا المساعدة . أغدقَ عليهم النصائحَ ، وأمدّهم بما جاء به من مالٍ محفوظاً في أكياسٍ سميكة . قال : جئتكم لأسكن عندكم ؛ فقالوا : مرحباً . اتّخذ له مكاناً مجاوراً للجامع هذا . ونهوضه كان مبكِّراً يسبق أذان الفجر فيكنس أرضية الجامع وفناءه ، ويرشّهما بالماء . يفعلُ الشيء نفسه قبل أذان الظهر ومواعيد الصلوات الأخرى . سماءُ ذيبين زرقاء تتطلّع إليها العيون بانشراحٍ وبهجة تتراغى . الجميع عزا ذلك الصفاء لقدوم الرجل الودود . ترسخت قناعتهم به ، فأقرّوا تُقاه وورعه . كتبَ لمرضاهم الدعاءات . قيل بعد حين أنَّ الشفاء كان سريعاً . مرر كفّه على بطون العواقر فانتفخت ، وقرأ أمام أعين الممسوسين والمسكونين بالجن فقيل انتفضوا أصّحاء . " أيكون هذا مَلَكاً أم جنّياً يؤدي ما صعُبَ على الآخرين ؟ " .. هكذا تساءل الناس دهشين .

ضحك حميد الباشا .. ضحكَ من كل أعماقه ؛ وتوجّه إلى الرجل :

_ يا أستاذ !.. يا أستاذ أناس أعماهم الغباء .

_ دعني أُكمل ، يا حميد .. دعني .

" سريعاً دخل القلوب . صار الحديث اليومي . حديث الناس البسطاء ، وما أكثرهم في ذيبين يُعاد ؛ ويُعاد .. لا أحد يمل الإعادة .

وفي الإعادة إضافة . والإضافة عند البسطاء تكبر وتكبر ؛ وقد تزيح مركز الحديث جانباً لتصبح هي الفحوى والمحتوى ... وفي يومٍ جاءهم هذا الرجل _ وأشار إلى حميد الباشا _ يبوح بسرٍّ يبعث على الذهول . قال : " وأنا في طريقي إلى بيتي تناهى

إلى مسمعي حينما كنتُ أخطو جنبَ بيت الرجل صوتٌ غريب أثار فضولي ، فتوقفت عند الباب أتنصت . هالني ما سمعت !! سمعتُ أصواتاً كالتي تنبعث من جهاز راديو كانت تتردد . في البدء لم يساورني الشك ، إلا عندما صرتُ أسمع الرجل ينطق بكلمات غريبة بعيدة عن العربية ، كأنه يتكلم مع جهاز راديو ! " ..

هزَّ حميد الباشا رأسه تململاً كأنه يستعيد تلك الأيام .

" لا أطيل عليك ، يا أستاذ . فوجئ حميد بنبراتِ الاستهجانِ من قِبل الناس ؛ بل اتّهموه برغبةِ تشويهِ سمعة الرجل الطيب ، الوقور فانكمش كاتماً القَسمَ الذي أطلقه لمرَّاتٍ بأنَّ ما قاله صادقٌ وليسَ من وساوسِ الشيطان . " .

" يجتمع الناسُ حولهُ فيّسمعهم جديد كلامٍ يبهرهم ، مؤججّاً خيالاتهم . رسمَ لهم ممالك وقلاع ؛ جنائنَ وفراديسً . انتقلت هذه إلى أحلامهم فعاشوا حياة الحلم الجميل ؛ يتوهون في مسالكه ؛ وتأخذهم دروبه إلى فناءات وفضاءات تستحيل فيها الأماني واقعاً ، والرغبات جواهر ملموسة يضمونها إلى أعطافهم ، ثم يخفونها في خزائنَ ؛ أبوابها من الصاج الموشَّم بأصابع النار ، وأقفالها فضّة تطعمها ياقوتات ملوَّنة ، وماسات براقة تفيض ضوءاً شذرياً مضبباً . نسوا الأرضَ والزرع ، والعمل . وحتى الأولاد والزوجات نسوا . إذْ الأحلام أجمل ما يعيشون ، والرحيل خيالاً أبهج ما يرحلون ... إلى أن تكشَّفَت تلك الأحلام والتراحيل يوماً ؛ وانجلت شعاعات الواقع بطلبٍ غريب رماه الرجل على طاولة أذهانهم . طلبٌ سحبهم من نواصي الحلم سحباً أخرقَ وعنيفاً ؛ سمعوا لتأثيره قرقعةَ سلاسلٍ خيّلَ إليهم أنّها تكبّل أيديهم وأرجلهم . كما سمعوا لفح سياطٍ على ظهورهم ، وأنّهم على غفلةٍ فوجئوا بأنفسهم في زنانين دهماء ؛ وصوتٌ آمرٌ يهتف : " أزيلوا مرقد الشيخ أحمد أبي طير . دمّروا هذا الجاثم على أرضية الجامع ." .. وجاء صوتُهم وئيداً ، تغلّفهُ بحّة الدهشةِ بينما عيونهم تفشي نظراتٍ ذهيلة : " ماذا تقول ؟! " . فيأتيهم هتاف الاستهانة : " وما نفع وجوده ؟.. انقلوا الرفات وادفنوه في بطن الوادي ؟ " .. تفاقمت الحيرة في النفوس ، فردّدوا مبهوتين : " ماذا تقول ، يا رجل ؟! كيف نجرؤ فنزيل مَن هو بركتنا ، وشفيعنا ، وارثنا ؟! " ... حيال ذلك انقسم الناس وتجزءوا . منهم مَن وجد في الكلامِ حسن الإقناع ؛ ومنهم مَن أبدى تشكّكاً ورفضاً قاطعاً . " .

_ " ثق ، يا أستاذ .. ثق أنني عدتُ إليهم مرةً ومرات . " .. نطق حميد الباشا ناطّاً من صمته . " أقسمتُ لهم مؤكِّداً أني سمعتُ أصواتاً غامضةً تبعثُ على الارتياب ، وأنَّ هذا الشيء حدثَ لمرّات عدّة .. نعم ؛ لمرات أسمعه ينطق مفرداتٍ غريبة لا أفهمها ..آآآه ، أغرقوا في الوحلِ كلماتي ومحاولاتي في تبصيرهم بحقيقته المريبة .. احتقنت وجوههم واحمرّت عيونهم ؛ متّهمين إيّايَ بالكذب .. بكيت ! ثق ، يا أستاذ بكيت لوحدي . بكيت لأنني الصادق ، وهم الذين يفتعلون الطرَش فلا يسمعون . لم يتجرأ أحدٌ أن يصحبني لأسمِعُهُ ما يدور . ماذا تفعل ، يا أستاذ أمام موقفٍ كهذا . يكذّبونكَ وأنت الصادق .

_ اقتحم منزله ، واثبت مصداقيتك ! .. هتفَ الأستاذ وهو في حمّى إنصاته ؛ وقد أخذ منه الموضوع اهتماماً جادّاً .

_ أحسنت القول .. وهذا ما قررت فعله . لكني تراجعتُ فجأةً لحظةَ حسبتهم سيرجمونني ، أو يُحلّون سفكَ دمي إن أقدمت .

_ " فعلاً كانوا سيرجمونه آنذاك . ظنّوه يستغل انقسامهم ." . قالها الشيخ دعماً لكلامِ حميد . " كان يصيحُ فيهم أنتم أهلي وأحبتي ، وليس لي مصلحة في ذلك . ولكن ! .. لا أذن تصغي ، ولا اهتمام يولى . " .

الحديث يطول والوقت يمضي ويدنو من العاشرة ليلاً ؛ وأنوارُ الجامع ستنطفىء مع أنوار ذيبين بعد قليل ، فتغرق الموجودات في جوف ظلام عتي . من هنا يمكن اكتشاف مآب الناس في القرية إلى بيوتهم والاندساس في أحضان أفرشة ستقلهم في زوارق الكرى إلى مرافىء النوم العميق . لكنَّ الثلاثة هنا استمروا مجتمعين ، وراحلين بلا هوادة في دروب الذكرى ومنعطفاتها .

واستمر الشيخ في الحديث ؛ مؤثراً الاختصار :

- " توالت الأيام وجموع الموالين للغريب تزداد بينما يقل عدد الرافضين ... وذا يوم فوجىء الناس بزوال الطير الأبيض الفضي ، وهو ما أخبرتُكَ عنه في بدء حديثي . نعم ، زال من هامة المنارة ؛ وصاروا يشاهدونَ غراباً فاحماً يدور بوقفته مستطلِعاً نواصي القرية وبيوتاتها بعينين محمَّرتين أرعبت صغار القرية ، وأدخلت الخوف إلى قلوب المُسنين ، يذكّرهم بعيون الموت المُختلس . بيدَ أنَّ الآخرين لم يبالوا إذ طمأنهم الرجلُ بعسلِ الكلام ، قائلاً : " أنه لا يبعث على القلق ، فسيذهب غُراب ليأتي عصفور ، وربما تليه فاختة ، وهكذا .. المهم تنفيذ ما طلبتُه منكُم . "

نهض حميد الباشا مستأذناً ، خارجاً وقد طفحت في مقلتيه دمعتان جهِدَ أن لا يدعهما تسيحان على خديه .
رجاه الأستاذ أن يجلس حتى نهاية الحديث إلا أنَّ الشيخ قال : دعه ، فالأمرُ ما يزال يؤلمه حتى يومنا هذا ، واستمع لآخر الحكاية فقد قاربت على الانتهاء ، والضوء سينطفىء بعد قليل . "
كان الأستاذ في أوج لهفته ، وفي حمّى انصاته . وكان الشيخ في قرار الإخبار ورغبة ختم الكلام ، لذلك وضع حدّاً للتفاصيل وصولاً إلى الذروة :
ـ " وكان أن حُدِّدَ اليوم الذي سينهض ساعة فجره أهالي القرية ليدكوا بمعاولهم ومجارفهم وفوؤسهم المرقد والقبر ، وليزيلوا إلى الأبد وجوده الأبدي ... وفي الليلة التي صمموا في انتهائها على النهوض حدثَ شيءٌ أقرب إلى الخيال . فقد نهض أحد الرجال المتحمسين من نومه فزِعاً جراء حلم مثير تمثَّلَ فيه الشيخ أحمد أبو طير وسط هالة نور باهرة مرتدياً ثياباً بيضاً لكن قسمات وجهه كانت تفشي عتباً نطقهُ بكلمات دفيئة ، مُذكِّراً بطيب أفعاله التي قدمها إلى آبائهم وأجدادهم ، قائلاً أن من يدفعهم لهذا الفعل المشين إنما هو شيطان متلبس بلبوس الأتقياء . نفض الرجل الحلمَ من عينيه ونهض مرتدياً ملابسه ، وخارجاً إلى الشارع .. اندفع ؛ فإذا به يلتقي جاراً له . وجِلاً رآه ، يرتعش حدَّ الفزع .
- ما بك ؟!.. سأله مرتبكاً .
- مصيبة ، يا أخي !! .. هتفَ الرجل مرتعباً .
قليلاً وأبصرا جاراً لهما يخرج وقد كسا وجهه سيماءُ الخوف .. وغب لحظات امتلأت ساحةُ القرية بالناهضين من نومهم ، يلاحقهم الذهولُ والشَّده . وكانت المفاجأة أنَّ كلَّ واحدٍ أفشى للآخر بنفس الحلم وفحوى التفاصيل . وقتها سادَ القريةَ لغطٌ وهياج .. تراهم يسيرونَ ويتقاطعون ؛ يتوقفون ويندفعون . يبدون كما لو أنهم يودون التخلص من قيود تكبِّل وجودَهم وألسنتهم .. صوت ما فجّرَ في دواخلهم سؤال الصحو والاستفهام ، فتساءلوا هاتفين :
- أينَ الرجل الغريب ؟!
صوبَ بيتهِ انطلقوا !
وعند الباب توقفوا يطرقونه ، ويطرقون ، فلا يرد إلا الصمت . ولحظة اقتحموه بوغتوا بلا أثر له مثلما بوغتوا بحزم ورقية تلتهما نارٌ مشتعلة للتو ، وبعض أوراق متناثرة ومبعثرة امتلأت برموز وحروف غريبة جهلوا قراءتها .
صرخوا بصوتِ اكتشافهم لحقيقته :
- لنلحق به .. لا يجب أنْ يهرب .
الذين التقاهم الجمع الباحث في الطريق اسرّوا بما يثير الدهشة والاستغراب . قالوا أنهم أبصروا الرجل الوقور المَهيب ، الغريب بمظهر لا يأتي على البال قطعاً ! .. أبصروه متجرداً من ملابس التُّقى ومظاهر النقاء ، ومرتدياً بنطلون جينز وقميصاً تشابكت فيه ألوانٌ فائرة اتخذت شكل أفاعٍ ملتوية ومطوية ومتشابكة ؛ تصاحبهُ فتاةٌ شقراء صعدا سيارةَ جيب كانت متوارية في بيتٍ مهجور وانطلقاً باتجاه الشمال .
حين تداول المتعقبون الأمر وجدوا أن لا منفعة من الملاحقة ، فاستداروا عائدين . وبعودتهم أولَ ما واجههم هو هذا الصوت الذي سألتني عن سرّه ، يا أستاذ .. من يومها والطير يطلق صفيره المتواصل كأنّهُ يُذكِّر أهل ذيبين بضرورة التحسب والتوجّس من كلِّ داخلٍ غريب . "

ذيبين– اليمن
3/2/1995

تضرُّعات واعدة

كتلةٌ هلامية ذات تأجج فضّي برّاق تدنو زاحفة تدفع بها هامة جبلٍ شاهق يتخذ الشمال جهةً ، تشيعها شمس الضحى بدفقاتٍ من حبورٍ بهي . يزداد الألق ويتطعّم اللازورد بوشمٍ باعثٍ على التطلّع الطويل .. العينان اللتان تمولحت حدقتاهما تمتصان بمتابعةٍ دقيقةٍ هذا الزحف الجميل فتسترخي الغضون . تندُّ من بين الشفتين المزرقتين كلمات دعاء قصير " خيرُكَ يا رب " .

تتساقط حبّات المسبحة بصوتٍ خافت وسط الهدوء الراكض مع أنسام نيسان الباردة . يتلوى جسد العجوز حوريّة (تنقل نظرها الكليل لتنثره على مفازات الأرض الراحلة بعيداً حتى شواخص الجبال المحيطة . الأسابيع التي مرّت جرداء عقيمة بأيامها ، لا بدَّ ستؤول إلى منتهى ، ولا بدَّ لبشير الأمل أن يلوح .

وها هي الكتلة الأولى تزحف إليهم ؛ تأتي كزائرة لهثت العيون بانتظار قدومها . تقترب مخلّفةً هامة الجبل ؛ طافيةً فوق أشرعة العنب وشجيرات القات ، وهياكل شجر الطلح والدوم المتناثر هنا وهناك .. أيامٌ وستينعين أيتها الحشودُ المتعطِّشة .. صبراً ! صبرا !) . " ما خابَ مَن صبر . ما خابَ قطعاً " . صدر الصوت موشّى باليقين من " حورية " . وحورية ليست لها أرضٌ تنتظر ، ولا زرعٌ يشكو . إنَّما الروح جُبلت على الحبِّ للجميع والتضرُّع بالخير العميم لأهلِ قريتها ذيبين دون استثناء .(العيون الأخرى كانت تبصر هذا المشهد يتكرر . نعم ! الكثير من مثل هذه الكتل قدمت من قبل / مروراً فوق الرُبى والقرى ليسَ إلا . تنتهي عند الأفق الجنوبي ؛ هناك حيثُ سلسلة الجبال الجنوبية تمتصها ، ولا شيء ! لا شيء البتة ! . غير أنَّ اليقين لا يموت ؛ لا يمكن أن يموت . صحيح ظلَّ الجفاف مستمراً لثلاثة أعوام ؛ وها هو العام الرابع يدبُّ بأيامه البخيلة إلا أنَّ للأملِ بقايا . ما ماتَ نبتٌ إلا وخلَّفَ بذراً . النفوسُ الشابّة ملولةٌ بطبعها ، لكنَّ الكبار من أمثال حورية ما عرفوا لليأس منفذاً إلى إيمانهم .) .

مرّت ساعات الظهيرة كانت كتلُ الغيوم فيها تتوالى وتزداد ، ثم تتعدّى فضيَّةً فتعطي انطباعاً على أنّها تجعل من فضاء القرية وأراضيها مروراً ليس غير .

قال البعض : لن يأتنا المطر . وعزوا ذلك لتخلّي الناس عن أداءِ واجباتٍ مفروضةٍ أقلّها الزكاة وإطعام ذوي القربى والمستحقين . بهرجةُ الحياة الدنيا تغريهم آخذة بهم إلى مسالك العصيان . إذاً لن يأتنا المَطر !!

وكانت حورية تردد على مسامع من يلتقونها عند دكّة باب بيتها الحجري ، الرابض عند منحدر جبل " الذروة " : لا تيأسوا من رحمته .

شوارع ذيبين المعدودات تمورُ بصبيةٍ ناحلين مُتربي الوجوه ، رثّي الملابس ، حفاة ، مشاكسين . اللعب لديهم أثمن متعةٍ . لا يفقهون ضيقَ الآباء وانقباضَ نفوس الأمهات . أنسامُ نيسان الباردة تزرقهم بزخمٍ من طاقةٍ متأججة فيعمَدون إلى اللعب الممزوج بالصيحات النزقة ؛ يتبارون بإظهار قواهم فتراهم يتصارعون ، يرتمون على الارض المترية فتتعفّر وجوههم وملابسهم بمساحيق الغبار وسط صرخات أقرانهم المتحلقين .. وفي دربٍ آخر يتبارى آخرون بمبارزةٍ عدَّتُهم فيها " جنبيات " صغيرة أكلها الصدأ فعُميت حتى غدت لا تذبح عصفوراً . هؤلاءُ الصبية يمرحون في اللحظة التي تطالعهم حورية من بعيد وبما تقدر من نظر . (من فيض حبورهم تُثار الكوامن ؛ تعود صور الأيام من بين طيّات الذكرى : الذهاب إلى بئر عثمان أسعد رحلة وأجمل سير _ هي واثنتان أو ثلاثة من القرينات _ يخطينَ بأقدامٍ حافية وملابس مشجّرة مُهلهلة ، وسنوات تربو على الخمس عشرة

، يحملنَ قدوراً ويهبطنَ عبر دربٍ حجري تغزوه العثرات نحو البئر حذاء شجيراتِ الدّوم الوارفة . يتحدّثنَ ويتحدثن . تتخلل الكلمات ضحكات : " ههه ..ههه .. وماذا ؟ " . حكاياتٌ يطبع أغلبها الحياء ؛ وكلمة العرس خاتمة لكلِّ حديث أو بادئة لكل أمنية . هذه تتمنى يحيى ، وتلك تبغي ابن كريم ؛ والثالثة تقول لو صار لي ابن الشيباني سأعيشُ في جنة .. تتوالى الأمنيات والأحاديث تعاد يومياً . وقد تُستبدل الأسماء في اليوم التالي حسب الرغبات والأخيلة السائحة في الكوامن . بيد أن لا شيء من ذلك تحقق . فقد آل المآل بحورية أن تتزوج رجلاً عقيماً كان تزوج قبلها ولم يجد ما تمنّى . ومرت السنوات لاهثة متعجلة حتى جفَّ الرحم وتبددت نضارةُ الوجه الفتي . ثم مات الرجل . أماته ضغط دمٍّ كاسر تسبب به السكّري الذي لازمه لوقتٍ مديد ، مُضافاً له هموم الإحساس بعدم وجود مَن يخلفه يحفظ له إسماً فيما بقيت حورية تقطن البيت الوحيد الذي تركه لها .) .. تظهر الحشود بيضاء بهية . تتكاثف ثم تعبر . تنحسر مساحة اللازورد وتضيق لكنَّ الغيث في حقيقته بعيد ، بعيد المنال جفاءً .

لحظاتُ غروب ذلك اليوم شرعت تتنامى ؛ تتغلغل طاردة قرصاً برتقالياً لم تبق منه سوى مسحات حمراء تُلطِّخ خدود حشد الغمامات الراحلة غرباً . ثمّة الريح المتعالية يُسمع حفيفها خلل أغصان ووريقات الأشجار المبعثرة . آبَ المزارعون صوب قراهم ؛ وفتيات صغيرات عُدنَ بالماعز والأغنام من سفوح الجبال المحيطة ومنعطفاتها . النجوم طفقت تظهر صافية في رغوة السماء ؛ والمساء ككل المساءات العادية (هكذا هُم يصرفون الليالي : صلوات ودعوات وثرثرة قصيرة يعقبها نوم مبكر ، يسبقهم فيها الصغار وقد أنهكتهم شقاوة اللعب وأعمال أُجبر بعضهم على أدائها مع آباءٍ لهم تتطلّبهم المزارع .) . وصرفت حورية ساعات طويلة من الليل تقرأ على ضوء فانوسها الشاحب آياتٍ من القرآن غير آبهةٍ لمضار ابتسار الضوء على نظرها الواهي . وبين حين وحين تترك أذنيها تلتقطان أصوات دمدمات بعيدة فتدرك أنَّ مطراً ربّما الآن يغازل بطاحاً تنتظر . ذلك جعلها تطيل القراءة ؛ تقرأ وتقرأ حتى اقتراب ساعة الغلس حيثُ بثّت اللحظات خدر غفوتها على العينين فذبلتا . مالَ الرأس على جانبٍ تبعه تراخي اليدين وانبساطهما بينما بانت بواكير ريحٍ تعلو في الخارج ، وتشتد . (إنَّ ذيبين تنام الآن في عُتمة كاسحة قرينةً لسكون مطبق .) .

الأصوات الجماعية الهادرة هي التي انتشلت حورية من نومها ففوجئت بوضعها الغريب . تبيّنت القرآن ما زال مفتوحاً ، وذُبالة الفانوس تواصل بصيصها . أدهشها سماع هدير أصوات ، وتساءلت عن سرِّها . تنصَّتت فلم يبلغ أذنيها فهماً للكلمات . خطت ؛ وإلى الباب الخارجي توجّهت .

هناك جموعٌ من صبية يتقدّمهم صالح بن غابش ، وعلي شرامة ، وناصر داجي (أشقياء ذيبين وعفاريتها) . وأمامهم أبصرت ما أسعدها وذكّرها تاركاً خيطين مائيين ينحدران على الوجنتين المجعدتين . ثورٌ هلالي القرنين ، تناثرت على جسده أصباغ فاقعة يبدو كأنه ارتدى ثوباً صوفياً . رأته يعدو (المشهد غائم لدى الثور . إنّهم يبهرجونه ، راكضين خلفه . حناجرهم تهتف بتآلف يقلل من خوفه ما يجعله يُبطىء في حركته .. الأصوات تعاجل حورية : يا حنّان .. يا منّان .. منَّ علينا بالأمطار .) . الصبيّات الصغيرات عمراً انضوينَ مع موج الأصوات ، وجعلنَ يركضنَ مع الحشد طافيات وسورات الدعاء ، عائمات فوقَ هديره . النسوة انتصبنَّ عند الأبواب يتمتمنَ فيما البعض يرفعنَ الأيدي والرؤوس نحو السماء دعاءً وتضرعاً ، والرجال مؤثرين مشهد الأبناء (الصبر يوشك على النفاذ ويكاد يطيح بايمانهم مهشّماً لديهم قناعةً حرصوا على حفظها كنزاً لن تقدر عظم النوائب على تحطيمه وإفنائه . وأخيراً توجّهوا للقاء شيخ الجامع مُحل مشاكلهم ، ومعينهم على الصعاب . أطرق الرجل أمامهم طويلاً قبل أن يقول اذبحوا ثوراً فديةً علَّ الله يجود بخيره . خرجوا مندفعين . أمسكوا أقرب ثور صادفهم ؛ وإذْ قرّبوا نصل السكّين من نحره داهمه الفزع فنفر ، ثمَّ فرَّ هارباً . وكان للصبية دورٌ في ملاحقته بترداد دعاءٍ متوارث انتهى ببوادر غيث وفير روّى الزرع وأغرقه . ما زالت ذاكرتهم تنتعش باستعادة صورة ذلك السيل الفيّاض) .. وذُبِحَ الثور على نغمة ترديدات الدعاء الأزلي :" يا حنّان .. يا منّان .. منَّ علينا بالإمطار . " . وزِّعَ لحمه على البيوت . صار عشاءَ تلك الليلة التي شهدتَ ريحاً وسحابات رمادية داكنة خلت من الماء .

استيقظوا صباحاً على سماء زرقاء جهّمت الوجوه وعفّرت الدواخل برماد الخيبة . وكانت حورية تطمّئن النساء ممَّن جلسنَ جوارها على دكّة البيت ساعات العصر حيث الرجال / أزواجهنَّ يستهلكون الوقت في تخزين القات وتبادل أحاديثَ يتخلل

بعضها حديث المطر وطول الصبر وأمنيات بقدومه : " لا يجب ترك اليأس يداهم نفوسنا . أشعنَ الطمأنينة لدى أزواجَكُنَّ بأنَّ رحمة الله لا تنقطع . " .

الأيام تتوالى لاهثة ؛ شحبت فيها الوجوه واستكانت النفوس . راحت النباتات الصغيرة الضعيفة تميل على أرضٍ جافّة عطشى ؛ والوريقات تصفر وتذوي . على وجه حورية طفق الألم يعمل خطوطاً فينتج صفرةً جرّاء سهرها المتواصل الطويل _ تقرأ القرآن على صفحةٍ لتنتهي وقد ختمت الكثير من الآيات _ . وطرقت بابها مرةً فإذا بها أمام حفنة من الصبية يسألونها الرغبة في الذهاب إلى صخرة " مسعود " حيث الحنش يرابط هناك . (كنتُ صبيةً _ يا أولاد _ أصعد بمرافقة جدتي يوم يأتيها صِبيةٌ يكبرونني عمراً . أسير معها وهم خلفنا . جدّتي تحمل قِدراً فيما هم يحملون أعواد حطب وكمية من دقيق ذرةٍ جلبوها من أهليهم . ترتقي جدتي الجبل ممسكةً بي فيلحقوننا . صخرة مسعود الهائلة نراها تجاور كهف صغير رأينا في زاويةٍ منه عيداناً وقطع خشبية محترقة . قالت جدتي هذه من أعوامٍ خلت .) . هاتوا عيدانكم ؛ لملموه وكوّموه هنا . أحاطته بثلاثة أحجار كبيرة ثبّتت فوقها القدر . قالت الحنش يختفي هنا ." . حدِّقوا وتفرّسوا في فتحة دائرية في عتمةٍ سوداء خيّلَ للصبية أنّه سيخرج فيبتلعهم . لقد سمعوا أنَّ الحنش يتّخذ من جوف الجبل الكبير مناماً له ؛ وأنّه لا يخرج إلا في أيامٍ معدودات . يخرج وفي بطنهِ جوهرةٌ بحجم قبضة اليد . ينصبها على هذه الصخرة المسطحة ويروح يزحف ويتلوى في البراري باحثاً عن طعامٍ يكفيه لأشهرَ ثم يعود على دلالة الجوهرة المثبَّتة . والجوهرة إن سُرِقت سيظل الحنش الطريق إلى حجرهِ وسيهيم لا يفقه أين يذهب (تمنى كل مَن سمع الحكاية لو كانَ هو السارق لينعم بثراء بيعها .)

أوقدت الجدّة حورية النار تحت القدر فاشتعل الحطب . وضعت الدقيق ثم سكبت الماء وانهمكت تدور بالمحواش الذي تمسكه بينما التفَّ الصبية حولها ؛ تحكي لهم : " لا يأتي شيءٌ يا أولاد دون ما يقابله . لا يمكن الأخذ من الحياة ما لم تُعطى ؛ وهذا الحنش الضخم هو الوسيط الذي نبتغيه ليخاطب تلك الغيوم حتّى تحنَّ علينا فتمنحنا الغيث . لهذا نحن نعمل العصيدة هذه فنهبها له لأجلِ وساطته . ".

طفق القدر يسخن ، والدقيق استحال خليطاً ثخيناً أصوات متتالية تصدر :" بق .. بق " . ويد حورية تدور وتدور . يساعدها بين حينٍ وآخر كبير الجوقة صالح بن غابش ؛ يليه علي شرامة . حتى إذا أدركت انجازه حملت القدر من على النار وتركته يبرد . العيون تتابع الوجه المنكمش والعينين الخرزيتين . الدواخل تمور بخوفٍ يتنامى : " قد يظهر الحنش فترونه ؛ وقد لا يظهر . هذا راجع لرغبته . " . بعضهم تمنّى الظهور ، والبعض الآخر آثر العكس : " يا أبنائي . آباؤكم في حيرةٍ من أمرهم ؛ وأمر الله لا يحار فيه . إننا نفعل هذا لأجلهم . أغمضوا عيونكم لحظة أرمي العصيدة إليه ، فقد يضجره أن يبصره أحد . وقد ينتبه وهو يأكلها فيؤذينا جميعاً . "

أسدلت العيون أجفانها فاختفت الحدقات . بيد أنَّ عيوناً في قراراتهم انفتحت . جعلت تدور باحثةً في دروب الغيب ومفازات الخيال . كيف يكون الحنش ؟ ما لونه ؛ وأي سعة يمكن لعينيه أن يكونا ؟ هل سيخرج فعلاً ؟ ... رسوا على السؤال الأخير . أغلبهم ساورته رغبة الاطّلاع . فتحوا فرادى العيون فشاهدوا العجوز حورية تكتّل بيدها كمية من العصيدة وترمي به خلل الفتحة المعتمة ، مرددَّةً دعواتها برجاءٍ وتضرّعٍ راجيةً سعيه للإتيان بالمطر لآباء الصبية التعساء ؛ إذ بدون المطر سيفرقهم الجفاف ويتركهم يبرحون القرية وما حولها .

بانتهاء محتويات القدر دعتهم إلى فتح العيون . جلسوا يتحدّثون . يسألونها فتجيب . وحين دعتهم للنهوض والعودة كانت هنالك غيوم داكنة تقترب حجبت بعضاً من نور شمس العصر . ارتفعت الأبصار تلاحقها ثم تحولت إلى الجدّة حورية . كانت النظرات أكثر فهماً وتفسيراً من كلامٍ همّوا بإطلاقه فتردد لمسمعهم : " لا يأسَ من رحمة الله . " هكذا ؛ وغب ساعتين صارت ذيبين تتهادى بقلبٍ خافق تحت دكنة سحابات واطئة تبعث هديراً مدوّماً . تلك الغيوم تداخلت مع ظلمة المساء . الساعات استحالت فضاءً من بروق ورعود زرعت في قلوب الصبية يقيناً بوساطة الحنش ودعاء حورية بينما قلوب الآباء والأمهات تبتهل خاشعة . ترجو وتتضرع .

ولم تذق الجدةُ طعام العشاء بل شرعت تقرأ سوراً من الآي الحكيم على الضوء الوفير لفانوسها الذي نظّفت زجاجته جيداً ؛ موقنةً ومصممة على استمرار القراءة حتى لو بلغت الفجر . القلب يحتشد بطاقةٍ مفعمة بالأمل ؛ والروح يعج بإيمانٍ زاخر . (

إنَّ إيمانها شفيف لم تمسسه شائبة . سنواتها المتراكمة قضتها مؤمنةً ، موقنة بالخير . تحنو على الصغار وتطمئن الكبار . النساء يقصدنها في جلّ مواقفهنَّ العسيرة ، ويخرجنَ بنفوس مطمئنة .) . شفرات البروق تخترق زجاجة نافذتها الصغيرة ؛ تعقبها أصوات الهدير الراعد . تشبّثت العينان بصفحات الكتاب القويم ؛ والقلب يصر على إيمانه ؛ بل يشتد . رشقت بضعة قطرات زجاج النافذة فإذا فضاءات الروح تتَّسع . تسللّت إلى دواخلها بهجة طفقت تتفاقم مثل رغوةٍ علت وكبرت فازداد تشبث النظر في الصفحات النيّرة . اشتدت الرشقات مستحيلةً ضربات عنيفة ، متواصلة . أدركت أنّه مطر متواصل وليس غيمة عابرة .

السماء في الخارج تهمي مدراراً تغسل بيوتات ذيبين وتُماسِك غبار دروبها الطحينية . الأنوار الضئيلة التي يبوح بها زجاج عيون أعماق البيوت ظلّت تلك الليلة مضاءةً . بالإمكان رؤية وجوه عبر محفّات الوقت تلاصق الزجاج لتراقب الخارج . أشجار القات وحشود شجيرات العنب والطلح ، وكذلك شجر الدوم ، الجميع شرع يستحم . (استحمَّ الكلُّ بماءٍ استعذبه بعد صبر مديد ، لكأنه ضوءٌ يمنحه الألق والفتوة .) . كلابُ المزارع والبيوت التي عوت لدى الرشقات الأولى صمتت الآن . لاذت في الزوايا والجحور اتقاءَ عنف المطر المنهمر وشدّته .. لا حركة ؛ لا صوت يُسمعان في عموم القرية والأراضي المحيطة سوى صوت جريان ماء بوادره عند انحدار جبل " الذروة " . أعقبه صوتٌ آخر جنوب القرية حيث جبل " كحل " يدفع بأطنان الغيث الهاطل عليه صوب السهل المنحدر أسفله .

إذاً هي السيول ؛ حُلم أهل ذيبين وأمنيتهم !

إنَّ حورية تسمعها اللحظة هادرة فتستحيل القراءة عندها إلى ترتيل يعلوا شكراً مسموعاً تبثّه في فضاء غرفتها الضيقة لتسمع أعداد الملائكة غير المرئيين حولها . السماء تجود بما حلمت ؛ والليل يبلغ منتصفه ، ويمر . طالت مراقبة الناس وطال انصاتهم له ؛ ووجدوا أنفسهم بانصراف الوقت يغفون . يسرقهم الكرى محلّقاً بهم في أحلام تحفّها البهجة رافّةً فوقهم أجنحةٌ لسعادةٍ مُفتقدة منذ أعوام .. لقد ناموا جميعاً ؛ إلا حورية . كانت ليلتها التي تمنّت ؛ فاستمرت تقرأ ، وتقرأ تواصلاً مع الخير العميم .

لحظة فتح الصبية عيونهم كان الصباح قد حلَّ بكلِّ زهوه ونضارته . نفض حلّة الغيوم الرمادية ؛ والشمس طردت بقايا كتلٍ بيض أمكن رؤيتها تبتعد . ولأنْ شوهدت قلائلَ فلجمالٍ تنشدهُ السماء وشماً لخديها .

وخرجَ الصبية ، تتبعهم الصبيّات تاركينَ القرية ، ومنحدرينَ صوبَ الوديان . الخرير يُسمع في أماكنَ عديدة . انتشروا جماعات ، جماعات مخترقين هذا الغدير أو ذاك . صالح ومَن معه ما كانوا يعيرونَ بالاً للأنسام الباردة المتهافتة في تيّاراتٍ طويلة . خلعوا الثياب واندفعوا يواجهون شلالات أوجدتها الانخفاضات العمودية للأرض .. سبحوا .. عاموا : هيه ..هيه.. هاها .. هاها .. كركرات متقطعة وفيض حبور دافق مع بهجة عاطرة . الجميع يترجمون عيداً بهيّاً لم يشهدوا لمساته منذ أعوامٍ خلت . وقف المزارعون عند أسرفة أعنابهم . لمعان عيونهم يعكس سعادةً فائقة ، وحب دفين للشجيرات الغضّة بينما وقف آخرون على أرضٍ بور تركوها في انتظار الأمل كي يحرثوا وينشروا بذار القمح والذرّة . نقلوا أبصارهم إلى حيث عصافير تتّخذ أماكنَ متفرقة بعيداً ، عند الحافّات المندّاة . هنالك تدخل غاسلة أجسامها المغزلية ؛ نافضةً بقايا أتربةٍ وعَفَرٍ عالقٍ بأرياشها . تحاكيها في مكانٍ ثانٍ يمامات اقتربنَ وشربنَ كممارسة أولى أو استطلاع قصي للأمان ، ثم تهادينَ نزقاً إلى الماء كفتياتٍ يافعات .

على أيةِ تلّةٍ من تلال ذيبين تواجهُكَ أكثر من لوحةٍ انطباعية تلتقطها الباصرة لتدفع بها إلى خزائن الذاكرة .

هنا تتجلّى سخونة الألوان وبهاء الأنوار تشع من بؤرٍ شتى . هل التقطت العيون ذلكَ حقّاً ؟!

هنا العيونُ البشرية يحقُّ لها التفوّه والبوح علناً بلا كلفةٍ أو مواربة . كذلك تفعل عيون الطيور وعيون غابات العنب ، وعيون الجبال الشواهق ، وعيون التلال المتفاوتة التي تبدو الآن كجزرٍ عائمة أو أرخبيلات في بحرِ مياهٍ لها لون الأرض ، وعيون الأغنام والأبقار والماعز الراكض باتجاه الروابي يكرع كما يحلو له من بركٍ متناثرة ، ممتلكاً حركةً لم يألفها . ومثل كل ذلك عيون الصبية الأكثر تشبعاً بالموجودات : هه .. هه .. هه .. هه . واغترف صالح حفنة ماء بكفّيه .

_ خُذ .. رماها بوجه علي الذي نطَّ اللحظة من جوفِ الماء .

_ ها .. ها ..

غافله علي ؛ وبكفَّيه :

_ خُذ هذه بدلها .

وكاد صالح يتلقى من ناصر أيضاً لولا نظرته الخاطفة . مال برأسه فجاءت الرشقة في وجه صبي خلفه . تعالت الضحكات . استمرت متفجرة . دفقات متواصلة . حبورٌ وغبطةٌ بلا حدود ....

وبغتةً توقفوا !!!

كأنَّ صوتاً دوّى في مسامِعِهم مرةً واحدة .

_ حورية !! ... هتفَ أكثرُ من صبي .

_ ماذا بها ؟

_ كيف نسيناها ؟ لا بدَّ أنها عاتبةٌ علينا الآن .

_ آ .. صحيح . ماذا نفعل ؟

_ هيّا .. هيّا ؛ لنخرج . سنزورها ونعتذر .

تركوا البرك ؛ ومعهم دوّى نداءٌ رددّوه بالأمس : يا حنّان .. يا منّان ....

انظمَّ إليهم صحبٌ آخرون التقوهم في الطريق . ولجوا دروبَ القرية . خطاهم تتلاحق للوصول . على الوجوه قطرات رقراقة ؛ ومن شعورهم تنساب خيوط مائية نازلة على الأعناق . إنّهم غير آبهين لها . أصواتهم الجمعية وأداؤهم المتآلف أنساهم مهمة التجفيف .

خلّفوا الزقاق الأخير ؛ ووقفوا عند باب حورية . أدهشهم أنَّها مُغلقة . طرقوا بضرباتٍ أقوى فووجِهوا بالصمت .

_ هل خرجت ؟! .. كلا .. كلا .. لو فعلت ذلك لتركت خبراً عند الجيران .. لنسأل الجيران إذاً .

سألوهم فلم يأتِهم سوى الإبهام . دفعوا الباب دونما اتفاق . ندهوا وانتظروا . وإذْ لم يسمعوا ردّاً اندفعوا ، مرتقين درجات السلم صوب غرفتها التي وجدوا بابها مواربا ...

صعقوا لحظة الوقوف على عتبتها .

هالهم المشهد الغريب : حورية منكفئة على القرآن المفتوح ، مغمضة العينين ، مرتخية الشفتين . تتجلّى مسحةٌ من بقايا ابتسامة صافية كشفتها حزمةُ شمسِ الضحى المتسللة عبر النافذة الصغيرة منهالةً على الوجه الذي بدا أشدَّ وداعة وأرق طلعة ، بينما خرير أمواه السيول دفّاقاً منغّماً سمعوه يتعالى في فضاء الغرفة وجنباتها ؛ طافياً مع شيءٍ لا مرئي حملته لوامسُ الهواء وراحت تطوفُ به فوق بيوتات ذيبين ، وروابيها ، وغدرانها .

ذيبين

أواسط نيسان 1995

Ich Liebe Dich

ـ جبران .. ! .. جبران .. !!

ويقفزُ جبران كالملدوغ من مكانه الظليل تحت الدومة الوارفة حذاء الطريق الخارج من " ذيبين " . يتخذ الأرض الصاعدة نحو سفح الجبل راكضاً ، وأنا أهتف به : انتظر ، يا جبران .. انتظر ! .

الشمسُ دفيئة ، وظهيرةُ آب تشي بنسائم تؤكّد هيمنة الصيف .. آ.آ.. جبران ؛ لقد ذهبوا وخلّفوك . سرقوا طمأنينتك ورحيقَ تفتُّحِكَ . تركوك عيوناً باحثة ، ونظرات حيرى ، وعقلاً هو بقايا هشيم .

أتعرف يا قارئي " ذيبين " ؟

وهل سمعت عن جبران ؟

اسمان نحتّهما على صخرة بيضاء بارزة ، آليت في اختيارها أن تكون في الدرب الصاعد أو الهابط من " ظفار " بينما تركت فراغاً لأسمٍ ثالثٍ يجاورهما .. اسم صارَ طيفاً وحلماً مُنتَظَراً .

* * *

لم تكن " ذيبين " سوى قرية وديعة هادئة توسدت أكتافَ تلّةٍ وسيعة يحرسها جبلا " كحل " و " الذروة " . ولم يكن جبران سوى تلميذاً في المدرسة الثانوية الوحيدة . يأتيها في الصباح مَشياً ، قاطعاً درباً تختلطُ فيه الحجارة مع الترابِ الطحيني ، تترامى على جانبيه سهوبٌ خضر تبدو فيها غابات " القات " متسيّدة كأنّها تُعلن تفوّقَها على كلِّ زرعٍ شقَّ الأرض وخرج للدُنى .(دائماً يؤثرُ جبران حضورَ الطابور الصباحي ، اوغالباً ما يختاره مُنظم الطابور قائداً له مع اثنين من أقرانه . يعطي إيعازَ الانتظام وترديد الشعارات وقراءة آيٍ من الذكر الحكيم .. هو لا يتوانى عن أداء ذلك . يدفعه حب الالتزام وفراسة تميّزه عن

الآخرين) . لجبران قوامٌ طويل وبنيةٌ متينة متماسكة . في وجهه مسحةٌ من جمال يماني امتزجت فيه سمرةٌ أفريقية . وله عينان مشرعتان وضاحكتان تبدوان لمن يتطلّع فيهما أنهما ترحبان به رغبةً في التعارف ، وتوقاً للقاء . ذلك جعل الكثيرين من الغرباء يسألونه السؤال المتداول : " أين رأيناك من قبل ؟ " . يدخل قلوبَ الآخرين خطفاً . أثيراً كان وودوداً مع صحبه . ومدرسوه كثيراً ما بالغوا في الثناء عليه .

* * *

_ ما هكذا ، يا جبران ؟!

يصمت جبران .

_ تعال معي وادخل الصف مع زملائك .

يهرب ..

_ كلُّ حجرٍ في المدرسةِ يسأل عنك .

يبتعد ..

_ تعال .. تعـ.....ال .

* * *

وأستعيدُ في ذاكرتي ذلك الصباح الذي فوجِئت فيه مدرستُنا بزيارةِ كادر مستوصف ذيبين . طلبتُ وقتها من الجميع التزام النظام وإظهار حسن التصرّف ، خصوصاً وأن أفراد الكادر هم من الأجانب / الألمان الذين عالجوا طلبةَ المدرسة حينما نزلت بهم الأمراض الموسمية من زكامٍ وحمّى في الأعوام السابقة .

دخل رئيس الكادر صفّنا فألقى التحيةَ بلغةٍ ألمانية رصينة أعقبها بلغة عربية متكسِّرة : " سلام أَليكم " . تقف خلفه فتاتان تقاربتا العمر ، الأولى شقراء بطولٍ فارع والأخرى فاحمة الشعر قصيرة نوعاً ما .

_ سيتم فحص عيونكم على التوالي . أرجو إبداء تعاونكم .

قالها مدير المدرسة مخاطباً التلاميذ ، واستدار للرجل الضيف ... أشار الطبيب المُقيم إلى الممرضة الشقراء التي تحركت فجلست على كرسي أعدَّ لها ثم طلبت من الطلبة النهوض والجلوس على كرسي يقابلها كيما تتمكَّن من فحص عيونهم بمنظار تقرّبه من الحدَقة بعدما تضيء مصباحاً دقيقاً داخله فتسقط حزمة ضوئية شديدة على البؤبؤ الذي ينكمش للحظة قبل أن يستعيد حالته .

وفيما كانت الشقراءُ تفحص كانت فاحمةُ الشعر تدوِّن ما تسمع . تحرَّكَ التلاميذ تباعاً ووجد جبران نفسه يجلس على الكرسي بمواجهةِ التي ابتسمت له إذْ رأته . تمتمَ في سرّه : " لورا " . (كثيراً ما تطلّع إليها مبهوراً بفتنتها وهي تقطع دربَ القرية من بيتِ الممرضات صوب المستوصف وبالعكس . وأحيانا كان يقترب خجِلاً ليبدي مساعدةً لها وقت شراء ما تبغي من سوق ذيبين ؛ وهي بكل لباقةٍ ورقّةٍ تثني عليه وتشكره .. لمراتٍ عديدة تمنّى لو بادرته هي بالكلام وطلب المساعدة .) . وها هيَ تكلمه . إنها الفرصة المشبّعة بالمفاجأة _ وجهاً لوجه مع لورا .. يا جبران ! _ . دنا وجهُها من وجههِ فداهمته أنفاسُها مُعطَّرة ساخنة . أحسَّ كأنه يغرق في طوفانِ رغوةٍ أنثوية تتَّسع وتزداد هالةً وهيمنةً .تفشّت في أوصاله ارتعاشةٌ جعلته يَجفل فتبدر منه حركةٌ استغربت لها لورا . ترجّته بكلماتٍ رقيقة أن يثبت . تطلعت عبر الناظور في عينيه ، وتطلَّع هو مبهوراً بزرقة وصفاء عينيها وموار الحياة والتدفق السحري المشتعل فيهما . وإذْ رفعت الناظور عن عينيه شعرَ كأنه أستُلَّ من حلمٍ فباغتته اليقظة . فوجئ برئيس الكادر والمدير ، وبنا جميعاً ننظر إليه . خيّلَ إليه أننا اكتشفنا ما اعتراه . لكنَّ اقترابَ تلميذ آخر وتهيؤه لأخذ مكانه

ألغى الشكَّ في نفسه فنهض وخرج ؛ يقف في الفناء ذاهلاً يهيمن عليه شعورٌ غريب وغامض ومربك ؛ انتهى بالتفاتةِ " لورا " وسقوط نظرِها عليه لحظةَ خروجها والكادر من المدرسة .

في اليوم التالي بدا لي جبران شاردَ الذهن ، راحلاً في خيالاته بعيداً ، بعيدا (عُمرُه الشبابي يسمح بانطلاقته ، والموقف بالأمس لا بدَّ أججَّ في نفسه هذه الارتحالات) ، لذلك عندما تحدّث المدير بعد أيامٍ عن حاجةِ كادر المستوصف إلى تلميذٍ لبقٍ يعرّفهم بآثارِ " ظفار " فيصاحبهم واقترح أحد المدرسين شخص جبران رفضتُ أنا بشدّةٍ ؛ حتّى أنَّ زملائي المدرسين استغربوا إصراري .

للحقِّ أقول لم تكن لي القدرة على البوح بشيء محتمِلاً سخريةً سيرمونها في وجهي لو قلت أنَّ ثمة شيئاً رمادياً أراه من بعيد سيدمِّر هذا الفتى المُقبل على حياةٍ قد تمنحه افقاً جميلاً ، وإنَّ عليَّ منع الحدوث . كان صوتٌ ما داخلي يهتف : " لا يجب أن يذهب جبران .. ستكون بداية ضياعه وتهشمه) .. لا .. لا .. !

لكنَّ جبران خرجَ ذلك الصباح مُتقدماً الجميع : الطبيب والممرضتان وموظف صومالي صاحبهم للترجمة والإعانة . لدى " لورا كاميرا تتدلّى من على كتفها ؛ تبدو أكثرهم بهجةً فيما جبران غير مصدِّقٍ ما يرى ؛ وغير عارفٍ كيف ستسير الأمورُ بهذه الدهشة ، وكيف تحقَّق له كل ما تخيّل (تخيّل بالأمس وهو جالس في مقيل خالد حنش مع جلاسِ وجبة قظم القات أنّه محظوظ باختياره رفيقاً لنزهة الغد ؛ وأنَّ الحظ سيجلب له كلمات الإعجاب والحسد من قبل زملائه وأبناء قريته . سيكون حديث الآخرين طوال ساعات جلسة المقيل وربّما ستنتقل الكلمات إلى صفوف البنات فتُثار في دواخلهنَّ غيرةٌ حارقة . ولعلَّ " أسماء " التي أعجب بها ولم يُعجبها تسمع ما يدور بينهن فتحرق كبدَها على لظى الجمر الذي أحرقت به قلبه . سيمشي بعد ذلك اليوم متخايلاً في طرقات القرية وسيثير إعجاب مَن لم تعجب به) .. لم يحسب للغيوم الداكنة التي ستمطر على رياض شبابه مطراً من قارٍ وأعاصير من شرودٍ وضياع .

السير إلى ظفار يستدعي ارتقاء جبل ينبغي الوصول لقمّته عبر ممراتٍ وعرةٍ متعرجة يتخللها صعودٌ حذر يتطلب مساعدة أحدٍ للآخر ... جبران يتولى الدور الرئيس في هذه المهمة فيمدُّ يده مراتٍ عديدةً وفي الأماكن الخطرة ذات الحافّات الضيقة ؛ ويدُ لورا واحدةٌ من الأيدي التي اشتبكت مع يده وأقترب وجهها من وجهه حتى بديا في أكثر من مرةٍ كأنهما سيتعانقان . ربّما كانت هي راغبة في الأمر لكنّه على النقيض . لذلك ما أن يقتربا ويكاد جسدُها يلامسه حتى ينتفض العرق على جبهته وترتعش يداه . تكتشف هي ذلك فتعذره في داخلها (الخجل عند القروي سمةٌ لا تقدر فوارق المجتمعات والعادات المتوارثة أن تمحوها .. لورا تعرف ذلك) لكنها تريد . وكلما سحبها أو أبصرته يسحب الآخرين بيسر ولكن باقتدار ينمو إعجابها به ويشتد ... وكان إن إلتقت العيون حين لاحت مَنارة جامع ظفار كأنّها قامة ملاكٍ فارع تقاوم جبروت السنين وهيمنة القرون ، تحكي عصراً عبّاسياً وصل بزهوهِ وازدهاره إلى هذا الموقع اليماني الدفين . هتف الموظفُ الصومالي بجبران أن يصفَ ويشرح له كي يترجم ما يسمعه للطبيب الذي أثاره منظر المنارةِ بغتةَ كما لو أنه اكتشف ما لم يحسبه أو كأنه عثرَ على كنزٍ كان من عِداد المستحيل إدراكه .

تحدث جبران عن المكان ومن سكنه من أقوامٍ هجروا الحياة وناءوا في تلك القمة بحثاً عن أمان مفترض من غزوات كانت ستطيح بهيبتهم وتجعلهم أسرى لمن لا يستحق أن يغدوا لهم عبيدا .

شغف الطبيب بالمشهد البعيد . وبين لحظة وأخرى يلتفت لمواطنتيه المستحمتين بالدهش وهنَّ يلهثنَّ .(يسعد جبران كلّما كلّمه الطبيب . ذلك يجعله يستدير فيشبع نظره من وجه لورا وقامتها المديدة) . وهي تبتسم وتتمتم بكلمات لا يفهمها جبران .

في مدخل البناء الحجري للجامع بشكله المُثير توقفوا . ذُهِل الطبيب وهو يرى إلى جماليات الهندسة الإسلامية وعظمة البناء الذي رصف كتلاً حجرية هائلة في حجمها ودقّة اتساقها . راح يتبعه الموظف الصومالي . يقتفي خطى وهمية ربّما سمعها تدعوه للولوج فضاع في غمار العتمة داخل الممر الذي قاده إلى فناءٍ مسقَّفٍ يتسلل إليه النور من كوى دائرية أو مستطيلة فتظهر بوضوح نقوش لها ألوان طيفية : وهياكل هندسية مثمّنة ومسدّسة . نجوم طعَّمت مساراتها فسيفساءٌ ما زالت بهيةً

متوهجة . حروف عربية برز فيها الخط الكوفي ظاهراً متميزاً . آيات تأخذ بانتباه الرائي في حركة دائرية تصاحب حافات السقف البعيدة .

الممرضةُ فاحمةُ الشعرِ تحركت مسحوبةً بجمالية الشريط الأرضي المرصوف بحجر رمادي داكن يسوُّر بناية الجامع من الخارج ويشرف على سفوح الجبل وبطون الوديان الخضر . أحس جبران بكفٍّ لورا تطبق على كفّه فتتشابك أصابعهما ويجدا نفسيهما ينسلان خارج فضاء الفناء إلى حيث سطوع النور . تفرست فيه لورا ؛ تأملت ملامحه الفتية وسحنته السمراء . تراه جزءً مكمّلاً لها افتقدته طيلة وجودها المقدّر . وقف إزاءها يتفرس في نظارة وجهها ولميع شعرها الذهبي . يلاحق خصلاتٍ سائبة يطيِّرها الهواء . تمدُّ له كفّاً يتناولها خجِلاً . يقترب الجسدان فتداهمه ذات الرائح التي غمرت أنفه وهي تجري له فحص العينين ، ما هيَّجت لديه اللواعج وأججت لهفةً لعناقها الذي بدا أدنى من النفَسِ إلى الصدر وأقرب من الرمش إلى العين . همَّ بتقبيل شفتيها وامتصاص شهدِ رضابهما لولا الخجل القروي الذي تراغى أمام لهفته فأعاق الفعل . استعاد رؤى تراكمت في رأسه أياماً خلت فهمس في سرّه : " آه ، أيتها الغريبة ! أنتِ تقودينني إلى الجنون ." .. أمّا هي فداهمتها روائحٌ غريبة : رائحة بُن منعش ، ورائحة بخور نافذ ، ورائحة بهارات مثيرة ، ورائحة تاريخ عريق ، ولهاث صدور هبّت عبر قرون تبني حضارة إنسانية نشرت ضوءها على سوحٍ تاريخية نائية في القدم .. سمعها تتأوه فحسبها نزوةً . غير أنها ارتمت عليه . تضمّه وتتأوه .. تتشمّمه وتنشج . أمامه استحالت صبيةً صغيرةً تتعطف رغبته في أنْ يضمّها فما تجلّد . البراءة القروية في الاستجابة للنداء الخنوع انبثقت اللحظة فتحركت ذراعاه تطوّقان الجسد الملموم كعصفورٍ بليل . التحم الصدران ؛ واقتربَ الفم يُطعم الشفاه المرتعشة . أسمعَها بوحَ قلبهِ ؛ وسمع رجاءَ أعماقها . تعانقاً بودٍّ إنساني مشترك ومشاعر بشرية متضامّة . سمعها وأسمعها ؛ وحولهما طفقت أرواحُ مَن سكنوا هنا منذ قرون تُبارك لقاءً نفّذ ابتداءاته القدر غير المحسوب دون أن يدرك منتهاه .

أطبق الاثنان أجفانهما ، مبحرين في إغفاءةٍ لم تبارحهما إلا وهما يسمعان نداء الطبيب من داخل الفناء يبغي استفهام جبران عن زخرفةٍ لخطٍّ كوفي أثار شهيته للتعرف عليه . قليلاً وفأجأتهما الممرضةُ ذات الشعر الفاحم بوميض كاميرتها تلتقطُ مشهدَ عناقِهما .

وكان جبران يقود المجموعة بعدما زال فيضُ العناق الذي شُبّه إليه أنَّ تفاصيل حدثه وتبيان قسماته ما هي إلا ومضة حلمية لا أساس لها من الواقع ، أو أنها كذبة بيضاء صنعها فضاءُ المكان المزحوم بالأخيلة . أبصروا أحواضاً تتفاوت أعماقها وقد طليت بما يشبه الاسمنت : " الذي ترونه بُركاً حفرها ساكنوا هذا الحصن ؛ وعددها يومذاك يربو على عدد أيام السنة . تغمرها المياه في المواسم الممطرة ثم تُغطّى ليكون لكل يومٍ من أيام السنة بركة واحدة يستفاد من مائها للشرب والطبخ وما تحتاجه البيوت ؛ وما زاد يُترك للسقي . حكمتهم في هذا التوزيع أن لا تجبرهم الحاجة للنزول إلى الوديان والاختلاط أو تعريض أنفسهم للبطش والانتقام ." .. انبثقت حالةٌ من حبٍّ ارتياح أو اندهاش على وجهِ الطبيب الذي شعر أنه يحصل على معلومةٍ معرفيةٍ تقرّبه إلى حالةٍ تشابه هؤلاء القوم مع أقوامه " الجرمان " في الحُقب القديمة ؛ مثلما اكتسحت وجهَ جبران مسحةُ قلقٍ وهو يرى إلى تجاوز انتصاف النهار وضرورة العودة بلا تأخير .

عند باب المستوصف ؛ وهو يتلقّى شكرَ المجموعة ضغطت لورا بأصابعها على كفّه ، هامسةً (هي) برجاء اللقاء قريباً ؛ وهاتفاً (هو) بنداءِ رغبته أن لا تنساه .

ذلك اليوم خُيّل لجبران أنَّ بيتَهُ استحال قصراً أثيراً تنطبع على أديمه قدما لورا ولمساتها الملائكية . صورتها صارَ يراها على الجدران : مرةً باسمة ؛ وأخرى متأوهة ؛ وأخرى غافية على سحابة لذاذة من الجذل ؛ وأخرى تفرد الذراعين برجاء اقترابه لتضمه إلى الصدر اللهيف ...

وعدته أن تلتقيه فأوفت . ظلَ يزورها في المستوصف . تستقبله بشوقِ العُشّاق ؛ يجلسان سويةً تحدّثه عن حبّها للقرية ورغبة عيشها الدائم بين جدران هذه البيوت التي تحسبها حاضنة للألفة والعيش الصدوق ... مرةً أظهرت له صورتهما وهما متعانقين بين آثار ظفار ، فوق ؛ في الأعالي . قالت أنها ستحتفظ بها ؛ وضمتها إلى صدرها للحظة ثم قبلتها وأودعتها حقيبتها .

الأيام تمر ؛ والزياراتُ تتكرر . وجبران يختلس الوقتَ ليزور لورا ؛ ولورا كأنها تعيش الهناء المبتغى فلا تَحسب لهناءٍ سينتهي ، وموعدٍ سيحين فتعود مُجبرةً إلى موطنها ألمانيا . ولم تحسب لهول الخبر الذي سترشق به مسمع جبران . صمتها الذي طال في إحدى اللقاءات حيّرهُ فانهال بالأسئلة . وما أتاه إلا جواب واحد بعد رجاءات عديدة بالرد .. أفشت له بانتهاء عقدها ، وبضرورة عودتها الإجبارية إلى عملها في وطنها . قالت : سأحتفظ بعلاقتِنا ؛ وصورتُكَ ستبقى عندي صكّاً للوفاء . سأعرضُها على أسرتي وصديقاتي ؛ وسأحكي لهم عن ودادِنا الذي لنْ تقدِر الأيامُ على فصمِ عُراه ...

لحظتها هتفَ جبران كالمعتوه : وأنا ماذا سيبقى لي منك ، يا لورا ؟! " .

غب أسبوع من حرقةِ الإفضاء وانفجارِ الخبر المدوّي سافرت لورا . وفي ومضة الوداع وضعت بكفّه ورقةً زرقاء اللون ، مطوّية . نظر في فحواها فلم يجد غيرَ حروفٍ جامدة / صامتة / غريبة .

برحيلها طفقَ جبران يقطع شوارع ذيبين المعدودات . يدور حول بيوتاتها الهائمة ؛ وحيداً مهموماً ، حسيراً ينتهي بالحجر الأسود المشكّل سياجاً للمستوصف . تطوف عيناه على نوافذ الردهات وتستقر عند الباب العريض المُفضي إلى الصالة الواسعة حيث ستكون لورا جالسة بين شواهد غرفتها . يهمُّ بالحركة والدخول لكنه يتوقف ؛ ثم يتراجع كأنَّه يرفض أن يُجابه بمن يمنعه .. يعودُ خارجاً ، متطلعاً بعينٍ باحثة إلى الوادي الفسيح علّه يلمحها قادمة تلوّح له تلويحتها المعهودة في كل لقاء ؛ هاتفةً به : ICH LIEBE DICH فيبتسم . يرفع يداً تطوّح في الهواء . يستمر بفعل ذلك حتى تكلُّ يده فتهبط ؛ ويكتشف بعد حين عقمَ فعلته فيصرخ في سرّه صرخته المدويّة : لورا ... لو.. را .

الفصولُ تتعاقب ؛ وجبران يهرَبُ إلى داخله . يتيه في دهاليز روحهِ الغائرة ، هائماً في ضياعات الدروب . العقل يتسربُ كالدخان . الكلماتُ تتلعثم على اللسان ؛ تتفكك ثم تنفرط حروفُها . تتعثَّر فتطيرُ مع أصواتِ الزرازير السوداء فوق التلال المتناثرة ؛ أو تتهاوى مع الأوراقِ الصفر الساقطة من شجيراتِ العنب اللاهثة في المدى . يصمت بعدها جبران . ينتهي كلامُه إلى الأبد . تصبح الإشاراتُ بديلاً عن الصوت كأنَّه يتقهقر إلى تخومِ العصور البدائية ؛ يوم كانت الإشارةُ وسيلةً حضرية يتباهى إنساننا القديم باختراعها . أسابيع وتذوي الإشارة ؛ ثم تنعدم . يستعيض عنها بالهرَب بعيداً عن دروبِ القرية وبيوتاتها الوديعة ... هجرَ المدرسةَ ، وتنكّر لوجوهِ صحابه . اتَّخذ جبلَ " كحل " وسفوحَه ساحاتٍ لمتاهاته وانشطار عقله الضائع . يصعد إلى ظفار متجولاً في آثارها سعياً لاستحضار صورةً نائية لغائبٍ حلَّ هنا يوماً . وإذْ يتسلل الليلُ يؤوب إلى مغارةٍ كانت ملاذاً لقرود اعتادت الهرب خوف الضباب الهابط من السماء على القمم ، نزولاً إلى السفوح .

****

أقتربُ منه ، جالساً تحت شجرةِ كافورٍ أراه ، مُرسلاً نظراته إلى الدرب الخارج من ذيبين .

أنده به ؛ فيهمُّ بالهرب .

أصيح به فيسعى للتلاشي ..

أقول :

_ جبران ! لا يجب أن تهرب ، فأنا أستاذك .

يتململ .. يحاور وجوده التائه . (أنا) أقترب منه . (هو) يمدُّ يده إلى جيب سترته الممزقة بحثاً عن شيء يحتفظ به . قليلاً ويُخرِج خرقةَ قماشٍ حائلة ، لُفّت بخيط صوفي بذات اللون . يقدمها لي فأجهد في فكّها . نجاح المحاولة أطلعني على ورقةٍ مجعدة ومدعوكة كأنها قُلِّبت عشرات المرّات . في داخلها قرأتُ كلمات كُتبت بحروفٍ لاتينية متقنة : WAIT AUF MICH . EINES WEDE ICH WIEDERKOMMEN

. ICH LIEBE DICH . . كلماتٌ تقذفني في بحيرةِ غرابةٍ هائلة . وأجدني أغرق في حيرةٍ سرعان ما تبينها جبران :

_ أتدري ما مكتوب هنا ، ياجبران ؟ .. أهتف به .

_ .....

هذه الكلمات تقول بالألمانية : أنا أحبك .. انتظرني سأعود لكَ يوماً !

ـ غي .. غي .. غ..غ غ غ غ !

ـ نعم ، يا جبران ! تقول انتظرني !

ـ غ غ غ غ غ غي !!

كان على وشكِ أنْ ينطقَ ؛ بيدَ أنَّ لسانَه خذله . تناول الورقةَ من يدي . دسَّ وجههُ في تراصفِ حروفِها يستنطق وفاءَ لورا وصدقَ عهدِها وقد غمرت عينيه الوسيعتين دموعٌ ترقرقت إلقةً . ما لبثت أنْ انسابت ترسمُ مجريين دافقين على خديه الأسمرين الموحلين .. نهضَ بعدها ، سالكاً الدرب الذي يقوده إلى مستوصفِ القرية ؛؛ هناك حيث سيشمُ رائحةَ لورا !! وربَّما سيجدها تنتظرُه ليغرقا في عناقٍ طويلٍ ؛ طويلٍ .. حميمٍ .

ذيبين ..... كانون 2 / 1995

احتراقات صامتة

عتمة الحوش تستحوذ على الباب الخارجي الموصد والمدخل الصغير إلى مخزن جمع الحطب والزوايا المتهالكة تحت جبروت الصمت . هذه العتمة توالدت على نحوٍ مباغت بعدما أطفأت فاطمة بنفخة هواء من فمها ذُبالة الفانوس الصفراء . قوقأت بعض الدجاجات المنكمشات على سطحِ برميلٍ مقلوب ؛ ثم استسلمت للظلمة والسكون (السكون في الخارج مطبقٌ ؛ وقرية " ذيبين " تنام على هدهدة أصوات غامضة ، غير مسموعة . ربّما هي تأوهات ساكني القبور الوفيرة لمجموعة مقابر تحيط القرية ، أو ربّما هي أصوات أجداث اليهود عتاباً لأحفادهم الذين غادروهم تاركين إرثهم وتاريخهم كيما يستحوذوا ، هناك على أرضٍ ليست لهم .) . خطت على لمسات الظلام وصولاً إلى السلّم الحجري ـ البيت مشيَد من كتل أحجار مكعبة ذات أحجام كبيرة تنتشل من الجبال المتراصفة بإطلالةٍ سرمدية ـ جعلت ترتقي درجاته الأربع المنحرفة يساراً إلى درجات أربع تليها . تسقط على الرقعة التي ينتهي بها السلم بقايا ضوء ؛ شريط يرسم مستطيل الباب الناضح من فانوسٍ مرتكن في الداخل على جدار الغرفة حيث طفلاها يحلّقان بأجنحة الكرى في رحلةٍ يطبعها الهناء وتُذكيها البراءة . الكبير دون الأربعة ، يصغرهُ الآخر بعام . نثرت من عينيها المتأملتين حنوّاً عليهما ؛ وتمتمت بدعاءٍ يحجبهما عن أعين الشرور . اقتربت من النافذة . فتحتها ، تاركة العينين تطالعان الليل في الخارج بكل ما يضم وما يجوس .

هذه الليلة تختلف عن سابقاتها .. كانت عندما يحين هذا الوقت تكون هي قد نامت . فجهد نهار كامل في أرضٍ تستدعي سواعد رجال أشدّاء يتركها منهكةً خاوية . تُطعم الصغيرين بما أعدّتهُ من حساء وخبزٍ مُداف بالسمن . تعقبهم بتناول ما يفضلُ منهما ، وما يتبقى في قعر القدر ؛ ثم ترمي الجسد المتعب مبحرةً في زورق النوم وحيدةً منعزلة . (السنوات الثلاث منذ رحيله قضتها لا تعرف سوى الأرض وصريف العنب ، والذرة التي تزرعها في الأرض الوسيعة ، والولدين اللذين أتعباها كثيراً

بحكم حاجتهما للاهتمام) . أما الآن فلم تكن عندها رغبة في النوم . عيناها مشرعتان على سعتهما ، والتعب يتراجع مع تقدّم لحظات الليل وأذرع السكون . رأسها تقتحمه صورة مطمورة منذ أعوام تحت أديم النسيان . تعود إليها الآن ، مستبيحةً هموده الذاكرة ، وعارضةً وجودها على النفس : " الزواج ! " .. ها ؛ أيصحُ هذا ؟ .. كيف خطر له ذلك ؟ لا .. لا.. . وكيف ستكون هي بعد زواجٍ تخللته الكثير من العثرات والمواقف المؤسية ، والسهر الطويل ، والدموع المسفوحة حرقةً ، والرضا بما مقسوم والندم أحياناً ، وأحياناً الحقد على الأب ، والبكاء بعيداً عن الأنظار . " أنتِ في مقدم العمر _ يأتيها صوت عمّتها _ الانسام الحيية ما زالت حولك ؛ تمرُّ على روحك فتطيبها . " .. ومررت أصابعها على رأسها مخترقةً شعرها المبعثر بفوضى على كتفيها . نزلت على وجهها متحسسةً جفافاً جعلها تدرك تأثير لفح الشمس ، ودوامات الريح والأتربة ، وساعات الكفاح المتواصل المجهد في الأرض : " لولا ثقل العمل والكد اليومي ما كان وجهي هكذا " . تسللت الأصابع على العنق نزولاً إلى الصدر . ما زال النهدان في ريعان فتوتهما ، محتفظين بصلابتهما . الخصر ضيّقٌ يهبط على ردفين مشدودين ، والفخذان كما هما بامتلائهما المعهود .. نعم ؛ هي في حقبة النساء اليافعات لم تتخطَّ الثانية والعشرين . هذه أعرافهم ! يزوجون البنات بعمر الخامسة عشرة أو أدنى . وتعوَّذت من الشيطان : " ما للأفكار الرمادية تتزاحم في رأسي هذين اليومين ؟ أنا ما فتحت مرّةً بابي لريح الهواجس ، فماذا دهاني اللحظة ؟ ما لخارف يعود بعد هذه الأعوام ليلاحقني بنظراته ؟!

العينان تطوفان ؛ تتابعان لألاء النجوم وديباجة الليل . الليل يهمي عتمةً شفيفة ؛ تاركةً روحها بعد نفَسٍ عميق تطفو في فيض داخلي من لحظات هدوءٍ عذب . هذا الهدوء يوازي مفازات السكينة السابحة في المدى المنفتح المتَّسع قبالتها . هدوءٌ يوحي بالقناعة في حياة قُدِّر لها أن تكون هكذا . لا تفكير مشين بعد رحيل زوجٍ قضى أيامه معها مسحوباً بتواترات ألم متواصل ، وطعن لا يعرف الرحمة ، واخزاً الرئتين الضعيفتين _ بهاتين العينين وشفرات الأسى تحز القلب كنتُ ألاحق سيل الدم يطفح على البصاق المنقذف من فمه بقسوةٍ قاهرة . أبصر ذبولَ الوجه وخنوع النظرات المستسلمة للمرض اللعين .. لا .. لا عبد الله ، لا تستسلم له . تصبّر .. تجلَّد ؛ عيناك اليائستان تخيفانني !! " .. ملتاعاً يرد : " إنّه ينهكني . يرسم غشاوةً مضببّة أمامي ، خللها أرى شبحاً مريعاً ذا وجهٍ فضيع في قباحته مطلقاً ضحكةً تشفّي كأنّه بانتظار حيان فرصة يدرك حضورها القريب : كأني أنا عدوّ لدود يقف أعزلَ بين يديه . " . تهتف إلى أعلى : " يا رب ، دع داءه لي . ارمه في فمي ، استبدله بي . إذا كان لأحدنا أن يرحل فأجعل الرحيل مرادي ! " ... ورحل هو ، مخلِّفاً إيّاها والولدين .. استدارت تطالع وجهيهما المتقاربين يغطّان في أسفار الوسن الوديع .

في إحدى جلسات ما بعد الظهر أبو خارف يهمس في أذن أبيها : " ولَدي خارف بات كبيراً . التأهل هو ما أبغيه له ، وحسبي أن فاطمة تليق به مثلما يليق بها . " .. تنكمش جبهةُ الرجل ؛ القلب ينقبض . الشفتان تجفّان فتمتد اليد إلى قدح ماء يفرغه في جوفه . كل شيء ممكنٌ أن يمر في تصوِّره إلا هذا . لقد تفوَّه باسم خارف . وخارف آخر ما وضعه في حسبان زواج ابنته . هذا الفتى غرٌّ ، غير مستقر . دائمُ الحركةِ بين القرية والمدن الأخرى البعيدة . يغيب لأيامٍ دون علمِ أحد به . اعتاد أبوه الشكوى منه . احتقن وجههُ واحمر . غام نظره ورحل (عبرَ مستطيل النافذة ؛ في المدى النائي تجمعت نتف غيوم رصاصية ، ما لبثت أن شرعت بالدنو كأنها ستقتحم زجاج النافذة وتدخل لتطمر كبرياءه . لمراتٍ عديدة شاهده يخطر من أمام مزرعته وقت كانت فاطمة منشغلة وأمها في العمل .) . هل ينفجر فيحيل الجلسة والحوار صخباً وثورة ليُظهر أمام الجميع رعونةً وسوء تصرف ؟ .. كلا ! لن يدع هذا يحدث . قال : أعطني الوقت ؛ فأنتَ فاجأتني . اترك لي يوماً أو يومين . " مع أن القرار ترجمَ تلك اللحظات دفقات من حنقٍ دفين ، وغضبٍ كظيم . وقفت أخته/ عمّتها تدافع ، معددة حسنات الشاب ، تحكي لباقته وذكاءه ، وسمعته التي لم يمسسها أحد بفعلٍ مشين : " تركه للقرية ونزوله لا يخلقان سبباً للرفض ." .. وفاطمة روحٌ منفعل من نار تضطرم . تخطر بين حين وحين متظاهرةً بأشغالٍ تؤديها فيما إذناها تصيخان للحديث . وإذْ تجمدت كلمات الرفض في بوتقة سمعها انقبضَ نفَسُها ؛ خنقتها عبرةٌ جارحة . ومثل مَن شاهدَ سكّيناً يُشحذ لذبحه اندفعت إلى الحوش . جعلت نظراتها تلاحق طيوراً منفضة عن سماء القرية. داخلتها أمنية أن تهرب مع السرب ؛ بعيداً عن جبروت السلاسل التي تكبّل حركتها وتشدّها إلى يم مستنقع الأعراف السوداء . لاحقت بعينين دامعتين درب القرية الصاعد إلى مدنٍ متزاحمة ؛ هناك حيث البشر يعيشون كما يهوون . تمنّي الروح بالعدو عبر طرقاتها هروباً وإنعتاقاً .. لماذا يحرمها ؟! لِمَ لم يسألها

الرأي ؟ .. توقفت فتأسّت _ وهل كان لأختيها الكبيرتين رأيٌ من قبل ؟ _ تبزغ صورةُ خارف باسماً . لقد أدهشتها ابتسامته يوم تقاطعا في درب النزول إلى أرضِ أبيها _ قبل أيام _ صاعداً هو إلى سوق ذيبين . كانت تشاهده من قبل لكنها ما طرفت عيناً لأجله . كانت قد سمعت عن طموحه الكبير ورغبته العيش في واقعٍ كغير هذا ؛ بيدَ أنَّها ما تركت للكلام رغبةَ الولوج إلى اهتماماتها . عرفت بإصراره وإلحاحه على أبيه للزواج منها ..

ماتت الأماني ، وديست بأقدام الأعراف السحيقة .

آل المآل بهِ إلى الاقتران بغيرها بعد يأسٍ يغرز حرابه في جسد الأمل الغض . يتهاوى الطموح ويدخل هو في منفى العيش مشدوداً إلى قريته وأرضه بينما ارتبطت هي بعبد الله ابن الشيخ صالح . شابٌّ يكبرها بسنوات ؛ وجدت فيه الأمواه الحيية التي تطفئ اللهب الحارق في جوفها . أنساها ملامح خارف ولهفته ، فتخلّت عن أخيلةٍ كثيراً ما رأت نفسها في منعرجاتها تقضي الأيام معه . بيتٌ صغير يضمهما ، وأرض يضربان بقبضةٍ واحدة صخرتها المتشبثة بمدخل كنز الحياة الرخيّة ... كانت السنة الأولى من زواجهما زمناً بهياً ، مزيجاً من متعةٍ وصفاء وخمائل حلمٍ سعيد . إلى أن فوجئت بإنهاكٍ وخمول وبطء حركة تساورُه : " ما بك ، عبد الله ؟! " . " لا أدري ! هي حرارة لاهبة متأججة تستعر في صدري . أحس بعض الأحيان بيدٍ تقبض أنفاسي . " . فغرت فاهاً .. آ .. أتراه مرضُ أمّها داهمَه هذه الأيام ؟! .. آآآآه ! وانكفأت _ إنَّ السعادةَ غيمةٌ بيضاء زاهية ،وثيرة ومثيرة ، وباهرة ؛ لكنها غادرة .. نعم ؛ غادرة لا تعرف الدوام . سرعان ما تتوارى مخلفةً جبالاً من الهموم ، وأثقالاً من لا قدرة لنا نحن البشر على حملها . بكت بمرارةٍ حارقة كبكائها على أمّها يوم حملوها صامتةً منطفئة ؛ لا تسمع صرخات ابنتها الطعينة ، ابنة الثانية عشرة . دفنوها في حضن الجبل . قالت لعبد الله اشتقتُ لزيارة قبر أمّي ... وأمام الأحجار المرصوفة بهيئة مستطيلٍ مهمل أطلقت لروحها الممزق عنان البوح : " أنتِ متِّ ولم أشبع منك ؛ وها هو عبد الله يضع قدمه الأولى على درب الرحيل . ! لماذا قيّضَ لي يا أمّي أن أعيش الأسى كأنني ابنته أو أنا أمّه ؟ " . أنفاسٌ غامضة تحوم فوق الوجه المنكفئ على حجارة القبر منذ وقتٍ طويل وسط الفراغ المستبيح فضاء المقبرة .

(_ ها أنتَ قد أتيت ! شعرُكَ يخضّله البياض ، والغضون بارزة في رقبتك .

_ وأنتِ كما أنتِ يوم غادرتِنا . تبدين أصغر عمراً .

_ وكيف هي فاطمة ، ابنتنا ؟

_ تحنُّ إليكِ . زوّجتها إلى عبد الله ، يا لتعاسة حضّها .

_ ماذا قلتَ ؟ عبد الله ! هذا الشاب شاهدته هنا في عالمنا . كان نحيلاً وبائساً .

_ نعم ؛ لقد خطبها خارف قبله ورفضت .

_ ولماذا رفضت ؟ كان يصلح لها تماماً . لا بدَّ هي ترغب فيه .. ومَن لها الآن ؟

_ عمّتها . هي كل ما تبقى لها هناك . تعاملُها كما لو كنتِ أنتِ .

_ آآآ ولكن عمّتها ستموت قريباً !

_ لا . لا ، كيفَ تقولين ذلك ؟ أنتِ تؤلمينني . تؤلمينني حقّاً .

_ هكذا هم البشر ؛ تعساء . يموتون بسرعةٍ فائقة .)

صحت .. لمحت دموعاً دفيقة في شقٍّ ضيّقٍ دقيق بين حجارتين . صُعِقت للحظة : " أتراني أبصر دموعَكِ ، يا أمي تشاركني محنتي ، أم هي دموعي التي أردتها ترطب ترابَ لحدِكِ ؟ ".. كفكفت سيلين ما يزالان منحدرين عبر وجنتيها .

التفتت ثم خطت إلى زاويةٍ الغرفةِ . هناك توقّفت . أزالت بعضاً من أغطيةٍ مُنضّدة على شيءٍ مرتفعٍ . أزاحت قطعة قماش تغطيه لتظهره صندوقاً خشبياً حالَ لونه ، وبهتت على وجهه زهرةٌ عريضةُ الأوراق ، جفَّ لونها وشحب . الرتاج شُدَّ بسلكٍ نحاسي صدئ . بأصابع مرتعشة شرعت تفك تشابكات السلك . لحظةً ورفعت الغطاء : أثوابٌ متراكمة لها ألوان متنافرة . القطعةُ الأولى ثوبٌ حريري طري تناثرت عليه مثلثات صغيرة بخيوطٍ ذهبية لامعة . ثوبٌ آخر لازوردي محبب بنقاط بيض ثلجية ؛ وثالث أسود تداخلت فيه دوائر اشتقَّت ألوانها من أطياف الشمس .. وفجأةً تسمرت النظرات على الثوب الرابع . رفعته .. قلّبته باهتمام وتأملٍ طويل . حدّقت في كل جزءٍ منه . العطور تشيع في الأنحاء ، والنساء يتحلّقن حولها يتغنّينَ بأشعارٍ

ترسم طوفان مسرّةٍ رائقة ؛ يضربن الكفوف بتآلف بهيج . أمامها وضِع إناء احتوى مزيجاً من حنّة خليطة بمسحوق " الشودر " . وامتدت يد العمّة سعياً لإنهاء اللمسات الأخيرة لهذا الخضيب الطيني ؛ ومدّت هي كفّين خضبتهما المرأة راسمةً على الساعدين نقاطاً متقاربة ومتواصلة صعوداً إلى زهرة تحيطها وريقات سيفية حادة النهايات ، ثم انتقلتا إلى القدمين ففعلت الشيء نفسه . عضلتا الساقين بضتّان تبدوان منحوتتين _ تلكما جعلت الأبصار المحدقة تفشي إعجاباً وإطالة نظر _ تذكرت أن هذا الثوب هو الذي كانت ترتديه ذلك النهار . امتدت اليد تُخرج الأثواب واحداً ، واحداً . كوّمتها في حجرها . ومعها توالت الصور البعيدة بين لذّةٍ سارية تدغدغ محفّات الأوصال بمجسّات ريشية رقيقة وألم ناري حارق للروح ، قابض للنفس . أغمضت عينيها تبغي إنهاء هذا التتابع من حشود صور استحالت مؤسية لا تطيق استعادتها (لقد امتنعت من التقرّب إلى الصندوق منذ وفاة أبيها قبل عام . كانت تلك آخر مرّة عندما جمعت ما لديها من ملابس تزينها الألوان وتحلّيها النقوش مع ثيابِ زواجها ؛ وقررت إن لا ترتدي من محتوياته فقد ذهبت الأم والزوج ولحقهما الأب ؛ ولم يعد لديها في هذه الدنيا غير عمّةٍ رءومة هي الوحيدة التي تبثّها الشكاوى وتسرّها على خزين الهموم المتوارثة في قلبها ، وولدين تجد فيهما بقايا أمل في حياة قست عليها بكل ما تمتلك من أسلحةٍ كأنها في امتحانٍ مقصود يتملّى مسار صبرها بلوغاً إلى أقصى مفازة تدركها) . الحسرات تنفلت متحررة من صدرها الغائم .

نهضت ؛ وأمام الكوّة المستديرة كنافذةٍ صغيرة توقفت . تيار هواءٍ باردٍ ورطب مرَّ على وجهها . النجوم التي كانت تتأملها عندما جلست نأت الآن غرباً . تمثّلت أمامها نجوم متهافتة ؛ والسماء بدت أكثر صفاءً بحلكتها . لاح لها أنها قضت وقتاً ممطوطاً محلّقةً بأفكارها . أرهفت السمع لأصواتٍ متقطعة لديكةٍ تتواصل بين مفارق ودروب أجواء القرية . استدارت تطالع وجهي الصبيين ، ثم تحركت إلى الفانوس فأطفأته . ووسط عتمةٍ وسكون يعلنان وجودهما المهيمن على المكان دست جسدها في الفراش . ومن بين محفات العتمة وطوايا السكون تجلّى طيف خارف . تلاه وجه عمتها : " لا يجب رفضه . إنّه الآن رجلٌ يملك أرضاً وزرعاً ومقاماً يبعث على التقدير .. ولا تنسي أنّه أرادك بقلبه ؛ وبإمكانه الزواج من بنات القرية غير المتزوجات . هو يريدُكِ يا ابنتي ففكري بعقلك . " . . " ولكن يا عمّتي أبٌ لثلاثة أطفال ؛ وعنده زوجة لم تقصّر معه ! " .. " وما الضير في ذلك ؟ ! " ."

أريدكِ ، يا فاطمة . رحم الله الذي كان السبب في فراقنا . ها أنا أعود إليكِ ثانيةً فاسمِعيني موافقتك . قولي نعم فأمتلك الدنيا بأكملها . رغبتُ العيشَ معكِ طالما عيناي تريان الشمس ، وتمنّيت قبري جوارَ قبرَكِ بعد الموت .." لا .. لا .. لا تقل ذلك ، يا خارف ." . رفعت يدها تمنع كلاماً كان سينطلق من بين شفتيه فوجدت اليد تعوم في الهواء . جعلت تبث نثار الأسئلة على صفحة أفكارٍ حاولت أن تكون جادّةً في بلوغ منتهاها . تجمع الإجابات ، وتضع الاحتمالات . تحاور ؛ تبعد أخيلةً رمادية ، وتحل محلها أخيلةً أشد إشراقاً . تقتحمها أفكارٌ ليست في حسبانها من قبل . تتراجع . تتأمل فيأتيها شيءٌ من الرد . إنَّ في رأسها أفكارٌ تنبثق للتو تجيشُ ناقصة ، مبتورة مختلطةً مع أخرى قديمة . ثم تمتزج في رؤى ليست لها : شمس ساطعة وتحليق في زمن بعيد كانت فيه صبية تلاحق يعاسيب ذهبية وفراشات مبقّعة / خراف مذبوحة ، مرمية في العراء / بكاء عند مزار / وجه أمّها محايداً / أبٌ يتألم ندماً / برك تطفو على سطحها شقائق حمر .. جهدت في مناقشة الأمر . حاولت التساؤل عن أسباب وجدوى ذلك ؛ لكن الوسن طفق يزيغ العينين مُطبِقاً الرموش ، ساحباً الروح رويداً ، رويداً على سحابة بيضاء راعشة ، وسط سديم يحبو بطيئاً ، مُصاحباً أنسام رخية شرعت تتسلل عبر النافذة المفتوحة قادمةً مع ابتداءات احتراقات فضّية تعلو من ما وراء الروابي الناهضة ، طاردةً وحشية ظلمة داجية أعلنت سطوتها لساعات على الوجود الراهن ، الوديع ، المستكين .

ينور .... نيسان 1995

تحت غيمة النسيان

لم يعد سرحان رغم خلو الجامع من المصلين ، والشِّعِبُ الذي يُكنّى باسمه صار غيهباً / عتيماً . ومن داخل البيت استفهمت الأفواه بدءاً : أين يكون ؟ .. ثم انتقلت الأسئلةُ تداولاً بمفرداتِ العيون (لم يكن السائل زوجةً أو ابناً ، وابنة ، ذلك أن سرحان آثر العيش بليلٍ يغتالُ الأحلام ، واهباً المُعاندة منهما صباحاتٍ للآخرين .. يَمسكُ الشمسَ فيدحرجُها كرةً بين صغارِ قريته ، أو وجهَ لعبةٍ تُكحِّل عيونَها ظلالُ الجدران ، وتحمرُّ خدودَها ضحكاتُ الصبيّات وهو يتأملهنَّ ثمِلاتِ التطلّع إليها أو شاكراتِ المفردات لعطيته .. تلوذُ الوجوهُ الحيرى بأقواسِ الصمت وتتصالب العيونُ على البابِ الخارجي غريقُ الظلام .) .

وحين ارتفع صوتُ المؤذن من فوّهات " السماعات " أذاناً للعشاء تسترَّ الراكدون في البيت بعذرِ الصلاة بقاءً في الجامع ، يُرتِّل الآيات ليغمرَ روحَهُ بفيضِ الأنوار الإلهية لتخومِ السماوات النائية ؛ ولم يخطر بأذهانِهم أنَّه يقعي هناك (متكئاً على صخرةٍ ترتكنُ زاويةٍ تحاذي انحدار الشِّعب .. الدموع لأولِ مرّةٍ يتحسسُها تسيحُ على ثرى الوجنتين الضامرتين اللتين خطَّت السنون آثارَ خطاها مُخلّفةً تعرّجات ما عادت لا الرغبة ، ولا الحنين ، ولا التضرع ، ولا الخشوع قادرة على محوِها . يرفعُ يدَهُ فيُداهمُ بارتعاشِ الأصابع . يُجاهد لإيقافِها فلا يقدر .. أين الساعد المفتول ؛ يا سرحان ؟! يحاول الإمساك بمفرسهِ* ، فيتدحرج أدنى قدميه .) . والقرية إزاءه شالٌ أسود تُطعّمه لألات متماوجةٌ ، والدروبُ بامتداد تطلّعه صمتٌ محيق .. تساءل داخلياً :

" لماذا أنا هنا ؟! .. لماذا لم أنزل ؟ لا بدَّ أنهم قلقون ؟! " ..

داهمه خارجياً صوت : " ومن يقلق عليك ، يا سرحان ؟ .. ها ؟!! " .استدار دهِشاً مفجوعاً بالسؤال .

لأجلهم أهدرَ عنفوانَ الأيام ؛ سكبَ عصارةَ القلب في بوتقةِ إسعاد الإخوان ليشبعوا نزوعاً ، ويخلقوا ذريّة ، ويرفلون خُيلاءً على قطيفةِ الذات وهو أعزب ، وحيد ، منقذِف .. ينهضُ مبكِّراً طارداً نداوةَ الفجرِ وعذوبته ليدكَّ بساعديه صخرةَ الإعاقة ، مُحيلاً إيّاها تراباً طيّعاً للزروع . يُبحر في غمار لهيب القيظ مواصلاً ؛ حتى تنادي به الشمس : كفى .. كفى !! ساعتها يعود إلى غرفته ، تعصره قبضات الإجهاد .. وحيداً يدس جسده تحت الغطاء ؛ والوسادة سريعاً تغذّيه بخدر الرحيل .

مسحت أنامله المرتعشة دفقَ السيلين .

وشعر أنَّ شيئاً كالنشيج أو النحيب شرع يتفاقم في صدره .

وجدَ أن عليه أن يرمي وجهه بين كفيه ويروح برحلة بكاءٍ لا يدري متى ستنتهي .

وهناك !.....

هناك فقط كانت الأسئلة تتهشم على جبروت الإغفاءات ، والحلم ، والنسيان .

آذار 1997

---

*

المفرس : نوع من انواع الفؤوس المستخدمة في حفر وعزق الارض الزراعية .

عَبيرُ الحُلم

المصادفةُ الخضراء بين ثنايا الغيبِ العُشبي هي التي قادتنا إلى دفعِ الباب الخارجي والولوج داخلَ الفناء المغمور بأشداءِ عطورٍ وروائح تبثّها أقلام (الروج) وعلبُ مساحيقِ التجميل . همسَ صديقي : " لماذا دخلنا ؟! " . وكان السؤال انبثق فجأة من أمواه الذهن وجعل يخامرُني .. " لا أدري _ قلت _ المهم أننا دخلنا لنتفرج قليلاً ونبرح المكان ." .. تقدّم عاملان تحرّكا من مكانين قريبين زرعا ابتساماتِ ترحيبٍ أجبنا عليها بابتساماتٍ مقتضبة . انطلقت عيوننا تتابع علباً حمراء وزرقاء وسوداء . قرأنا كلماتٍ نُقشت حروفُها اللاتينية بلون الذهب وأخرى بلون اللازورد وأخرى بلون أعشاب البحيرات الخضراء . .. صرنا ندور مع امتدادات وانكسارات المعارض الزجاجية والرفوف المتعالية حتى السقف نطالع مهرجان المعروضات وفورانها . تهاجمُنا التماعات من واجهات وزوايا واستقامات وفيرة . شفاهُنا تهمسُ لآذاننا بـ(نوتات) الإبهار والدهَش . العيون تحاورُ شفاهٍ تنطبق بارتخاء _ لصور دعايات مُعلّقة في أكثرِ من مكان _ جمّلتها أصباغُ " الروج " . أناملُ دقيقةٌ تطلي أظفارَها ألوانٌ دهنية لامعة . رقاب شمعية جسَّدت فتنتَها مستحضراتٌ لها أسماء غريبة . عيون تنافرت أهدابها سوداء تطوّق حدقات مستديرة ، ضاحكة ومشعّة / خدود اختطفت بعضاً من ألوانِ الشقائق . ومن بين هذه التظاهرةِ المثمرة اصطدمت أنظارنُا بوجهٍ أنثوي غمرته ابتسامةٌ ملائكيةٌ قضت بتسمّرنا وانتصابنا مشدوهين ، حائرين .

_ مرحباً بكما .

ضاع الصوت ، وتكبَّل اللسان . تفتتت الكلمات ، وارتعشت الأوصال . طالع أحدُنا الآخر قبل أنْ نتمسك بقشةِ النجاة ونحظى ببقايا وجود .

تركتُ صاحبي يتولّى مهمّة الرد . نسيتُ ماذا كان جوابُه ؛ ذلك أنني وبكتلةِ حواسي جميعاً شرعتُ أتابع القوامَ الناهض الذي حجبت نصفَه السفلي عارضةُ قناني العطور والمستحضرات الأخرى . التهبت عيوننا بمرآى العينين السوداوين الواسعتين والابتسامة المفترشة بكل اتساعها الوجه والشعر المحبوس جلّه بشالٍ أسود انسحب قليلاً إلى الوراء ليحرر خصلات زعفرانية لامعة عقصتها (رولات) لف الشعر لساعات قبل أن تمنحها هذه الفتنة البنفسجية المتزاحمة مع الزرقة الطاغية لقميصها الهابط على تنّورة سوداء بأريجٍ غامض . طرنا في سماءٍ تنسفحُ على أديمها لذاذاتٌ دفيقةٌ تُصاحبها أنسامٌ جنائنيةٌ يغمرها السحر . وجدنا أنفسنا نطفو إزاء فنارات تودّع سفناً تحمل أكداس هموم ثقيلة وتستقبل زوارق ثانية تزهو حمولتُها بأنفاسٍ ولهى وضحكاتٍ نهارية تغسلها شمسٌ عاشقة منبثقة من ينابيع الضوء .. آنا وأعادتنا إلى ميناءِ العطر والرحيق المنهمر والوجه الودود ؛ وكما لو أنها استدلّت بحدسها المهني اندهاشنا رفعت كفّاً رخامية تشيرُ إلى الواجهة المزججة ، ثم الرفوف المتلاحقة :

_ تأملوا ، وسأكون رهنَ الطلب .

تحركت تستقبلُ امرأةً أجنبية بمصاحبة رجل يعلوها طولاً اقتربا من علب كريمات مرطبة ، وسمعناها تتفوّه بلغة ايطالية متقنة تعطي أسعاراً منتجات فرنسية . تأملت صاحبي فألفيت وجهَه شاحباً وعيناه تطفحان بذهولٍ عجيب . تنبّه لنظراتي فانطلق يسألني :

_ ما بكَ ، تبدو شاحباً ؟

_ أنا ؟! .. هتفتُ مستفهماً .

_ نعم ؛ ماذا قررتما ؟

بحثتُ عن بقايا ابتسامةٍ هاربة رميتها في روضِ وجهها :

_ صاحبي لمّا يزل في الثلاثين وجيوش الشيب تغزو شعر رأسه بلا شفقة .

فجّرت ضحكةً تطاير شظاها مع هواءِ العطور وعادت راسية على موانئ الوجه الوديع .

طأطأت رأسَها تحاول اختزالها خشيةَ امتعاض أحدنا . لا تدري أنَّ ضحكتها كانت كافيةً لمنحنا فرصة التقاط الأنفاس والسيطرة على أشرعةِ المشاعر التي راحت تشتعل كالهشيم .

استلَّت عُلباً ممّا وراء الواجهة الزجاجية وبعضاً من الرفوفِ عرضتها أمامنا ، ثم شرعت تعطي المواصفات الترغيبية تتابعاً مُفصحة عن ماهيّة الألوان التي يمنحها كلُّ صنفٍ ... وأمامنا عرضت أيضاً (كاتلوجاً) لنماذجَ وشعور متفاوتة توافقت مع الصبغات المحبّبة. نطقت الأسعار بابتسارٍ محاولةً التقليل من وطء ثقلها . وجدتُها باهظةً قياساً بأسعار تقدِّمُها معارضُ في الجوار .

هبَّت إلى (الكاشير) الذي ناداها بإشارةٍ من بين الجمع المحيط به .. تسللت يدُ صاحبي تقبض على كفِّي محاولاً أنْ لا يجعل الفتاة تبصر ذلك .

- كيف ترميني على طاولة الإحراج ؟!

- ولمَ الإحراج ؟! ألم تحدثني عن رغبتِك في طلاءِ شعرك الأشيب .. دعنا نخرج إذا كنت تضايقت .

رفعت رأسي وبشْيء من التودد شكرتها :

- ربما سنأتي غداً .

ظلَّ الوجهُ يحتشدُ كثافةَ الابتسام ، والملامحُ تطفو على وهجِ الشوق . سمعتها تجيب : " أرجو ذلك . " .

(هل استحسنت فكرةَ النقاء ؟ .. هل ومضت شرارةُ الحب لتلهبَ غاباتِ الروح ؟ .. هل رغبةُ الحديث تتشرَّبها القصدية أم هي من عِداد المهنة لعملٍ أساسياته اعتماد التحبّب بغيةَ الأخذ بالزبون نحو ناصية الشراء ؟!.. أسئلة قضت تتوالى وسط أمواج ذهنينا اللذين فقدا زمامَ امتلاكهما التقدير والحدس ومضينا نمضغها علناً)

خطونا إلى حديقة " التحرير " غير آبهين لمنبّهات العربات المارقة ولا لصرخات سائقيها ، المتذمرين للامبالاتنا وبلاهتنا .. انتحينا على أريكةٍ تنزوي غارقةً تحت عتمة باردة .. الوجهُ الالِق بزغَ من بين أغصان شجرة

أكاسيا متزاحمة الأوراق وانبثق يواجهنا . شاهدنا الابتسامةَ مشعةً تبثُّ بهاءً عذباً ومدغدِغاً يقترب من صدرينا ويخترقانه سعياً لتوسّد شغاف القلب .

أسأله : " أرأيت الودَّ الطافح على الوجنتين التفاحتين ؟ "

ويسألني :" وأنتَ ألم تلمح الهمسَ الدفين المنسكب من شلالات الحدقتين المؤتلقتين ؟

أقول :" كانت أناملُها تضربُ بآليةٍ متناغمة زجاجَ العارضة لحظةَ كانت عيناها تطوفان بأجنحةِ المسرة .

ويقول : " أحدس أنها كانت تتعمّد اسقاءنا جرعاتٍ لذاذاتٍ تدرك ما سيؤول تأثيرُها وهيمنتُها على مملكة روحينا .

" ياه _ رددتُ _ أشعرُ أنَّها رمت حجراً رجّت به بحيرةَ عواطفي الساكنة ! " .

وأسمع صاحبي منتشياً يقول مستفهماً :" حقّاً ؟! .. هذا ما يعتريني الآن .. آه !

مساء اليوم التالي كنّا نسرع لبلوغِ مكان عملها . بيدَ أن خطواتنا ثقلت . رحنا نبُطئ كلّما اقتربنا . وحين صرنا أمام الواجهة الزجاجية التي دفعناها بالأمس تمثَّل لنا القوام النوراني منبثقاً خلف كرنفال العطور والأصباغ . تملّينا الوجهَ النضِر يتطلّع باهتمام إلى الأشباح المتقاطعة في الخارج وتتصالب علينا وقت وطئنا دكَّةَ الدخول (كان شعور مشوب بالشكِّ ساورنا ، إذْ قد لا نجدها كما رسمناها في لوحة المخيلة ؛ لكنَّ الابتسامة الطفولية التي نشرت مظلتها على الوجه أكَّدت أنها كانت تحسب الزمن وتتمنَّى انصرافه . استبدلت بلمحةٍ مسحةَ القلق الهاطلة بغزارةٍ واستعاضت عنها بكلمات الترحيب الهامسة متراقصةً فوق رضاب الشفتين ما غمرنا بدفقٍ من الشجاعة والاعتقاد بحسن تصرفنا .

_ كنتُ موقنةً بحضوركما .

_ لكنّنا بصراحة نخشى حسبان هذا الحضور عابراً لديك .

غيمةُ كآبة وصمتٍ غلَّفت وجهها . وشت نظراتُها بعتابٍ شفيف . حاول صاحبي تداركَ الأمر ، فقال :

_ نسعى لعدم إحراجك بحضورنا . إنَّ عملَكِ يتطلّب أن لا نثقل عليك .

_ لا تحسبا لذلك أرجوكما . حضورُكما والتحدث إليكما جزءٌ من واجبي . إنَّ العشرات يدخلون ويخرجون ، فلا يساوركما ظن ليس له وجود .

صدّق صاحبي الكلام ، لكني وقفت إزاء أصابعها التي طفقت ترتعش لتبوح رغبةً ، ولقاءً تقدِّر له ألف تقدير . كتمتُ ذلك قصداً كيما أحسسّها بعدم اكتشافنا لبؤرة الشوق المعتلجة داخل قلبها .

تحدَّثنا عن عملِنا ؛ وتحدثت هيَ عن وجودِها . صارحناها بمصادفةِ المجيء فعزت ذلك لحظِّها السعيد . أفشت بما لم نتصوَّره ، وأبحنا برغبةِ زيارتنا لها يومياً فأعلنت انتشاءها عبرَ فراشاتٍ مخملية تتطاير خلل بستان حدقتيها الليليتين .. قالت أنَّ اسمها " عبير " . فقلنا ضاحكين : " هذا يتوافق وجنَّة العطر الماثلة حولنا " .

طالبناها باللقاء فوعدتنا بالتلبية .

بعد ستة أيام كنّا على طاولةِ العشاء عند مطعمٍ عائلي . حدث كل ذلك ولم يخطر على بالِ صاحبي سؤالُ إنْ كانت ستصبح حبيبةً له أم لي . كان هذا الخاطر بعيداً عن تساؤلي أيضاً .

صفقت طيورُ الشمس في فناءات قلبنا . ابتدأنا نُحسِّن من هندامِنا وتصفيف شعرنا وحلاقة لحانا . وكان صاحبي يسألني : " هل ثمَّة جدوى من صبغِ شعري ؟ وأجيبه :" بالتأكيد وإلاّ لِمَ أوجدوا الأصباغ وتغنوا بوسائل الدعاية لها ؟ " .

نقف أمامَها نسكب في إذنيها المرهفتين كلاماً نتوسم بنبراته الرقّة أحضرناه بعد حفظٍ وتكرار . أخذت تسلِّمنا قصاصةً مشتركة تضمُّ أسطرَ ترشحُ برحيقِ الحبِّ الفوّاح .. كنَّا وهيَ تكلمنا نجسُّ ونحدس رماديةَ عيون العاملين المحيطة وغضبها . عرفتُ ذلك . أبحنا لها همساً : " دعوهم هذا ديدنُهم ؛ حسّاد مرائون . سبعة أشهر ولم أسمع منهم كلمةً طرية ترطِّب جفافَ القلب . وأنظر إليهم ؛ فيهم الشباب الذين بالإمكان علاج الجروح العديدة المتوسدة هذا الروح ، لكن لا أحد منهم امتلك الشجاعة . ويوم جئتما لتزيلا اليباب انتفضوا جميعاً لمنع الماء ووداد الزرع . لم أعد آبه لوجودِهم . المهم أنني أؤدي واجبي وأرضي الضمير . سأكيدهم بكما .

لمحنا شراراً يتّقد تسفحه العينان اللتان سرعان ما تخّلتا عن وداعتهما واستحالتا عيني ذئبةً جريحة !.. ندّت منّا آهةٌ حارقة سنبتعد إذاً عنكِ رغبةً لئلاّ يمسّكِ أذى . لا يجب أن نكون المتسببين لضررك يا عبير .

_ لا .. لا ...

تلألأت جمرتا شفتيها تفيضان رجاءً . شاهدنا العينين تدلقان دموعاً على روابي الوجنتين اللتين ذبلتا سريعاً . لا ندري كيف امتدت كفّاها لتمسكا كفينا وارتعاشة مربكة تحرك الأنامل .

_ كيف لا . وأنت أحوج ما تكونين إلى العمل .

_ كُفّا عن هذا الاعتقاد ، أرجوكما – هبّت نظراتها تستنجد – اذا كنتما تودّاني اصمتا وابعدا قراراً سيدمرني .

ترك العمال أماكنهم واقتربوا منّا ، وبشيء من لومٍ أقرب إلى التقريع سمعناهم يقولون : " لماذا تدفعاه بها إلى الهاوية . لقد كانت أمهر وأشطر بائعة هنا وكنا حريصين عليها كحرصنا على جوهرة غالية . من يوم دخولكما تغيَّرت طباعُها ، باتت تكثر من الشرود والذهول . هل أنتما أعداء لها تجيئان لتهدّما مصيرها . إنَّ لها أهلاً ينتظرون ومستقبلاً تبغي بناءه .

شحب الوجهُ الوديع وتفجَّرت البحيرتان الجميلتان لهباً وحقداً .ارتعشت الرموشُ وانطبقت . ساحَ من بين تشابكها سيلان صافيان كدتُ أرتمي عليها أضمّها لصدري لأمنحها طمأنينة هي أحوجُ لها الآن ؛ لكنّي تمالكتُ نفسي خشيةً من ظن .

فتحت عينيها ؛ وبلمحةٍ استدارت تتابع علب الأصباغ المتراصفة . بأنامل مرتعشة سحبت واحدةً :

_ خذ ! _ كلّمت صاحبي _ ستغدو أبهى صورة وأجمل . عُد غداً بمنظرك الجديد .. سأنتظركما .

الخطى تتعثّر خائبة / القلب كسير يستبدل حلّتهُ الفيروزية برداء رث . يزدحم الرأس بأخيلة كابوسية وأصوات اللوم يتردد صداها مدوّماً في المسامع : " لماذا فعلنا كل هذا ؟! .. وهل يصح أن تمتد يدنا لتمسك مناجل تجتث منابت الزهور وتبدد رحيقها ؟ .. هل يصح أن نعبث كالأطفال بوسائل بهجتنا غير آبهين لسوء التبعات التي ستتعرى يوماً لتوصم ضمائرنا خزياً وغدراً ؟ هل نحن مخطئون حقّاً ؟ "

قرر صاحبي أن لا يحفل برجائها . رمى العلبة جانباً واستكان لهموم آخذة بالتحشد عند مرابض روحه لتتراكم لوماً وتأنيباً .. وافقته الرأي . حزنت لحزنه .. أخيراً قررنا أن لا نلتقيها بعد اليوم . إنَّ كلام زملائها يوسمه الصدق وتبرره الواقعية .

ثلاثة أيام ونحن كامنون بين جدران غرفتنا لم نر شارعاً ، ولم نكلّم أحداً ، ولم نخرج للعمل . لكنّي بعدها وجدت من الأولى أن أحدث صاحبي عن القسوة التي ارتكبناها بحق عبير إذ لا تستحق هذه المخلوقة الرهيفة كل ذلك . وأننا بعمرنا الثلاثيني أقدر على السيطرة وامتلاك العواطف من فتاة دون العشرين . ماذا إذاَ لو عدنا وفاجئناها باللون الجديد الذي سيحوّل تراكمات الشوك الكثيف غابة سوداء حييّة تعيد صاحبي عشرة أعوام إلى الوراء ، ثم نقّدم اعتذاراً لقطيعتنا معللين السبب لعملٍ اضطرّنا للسفر بعض الوقت ؟

أقنعتُ صاحبي فاستكان لرأي . انهمكنا بالطلاء ، وانتهينا . تهيأنا للخروج حسبما كنّا نذهب للقائها . تهندمنا وتعطرنا . وأمام المرآة توقَّف صاحبي يلاحق السنوات العائدة . لامَ نفسه لأنّه لم يفعل ذلك منذ زمن . بل ترك الآخرين ينظرون إليه كهلاً على نواصي الشيخوخة .

تركنا الغرفة واندفعنا عبر الشوارع ، نزهو بالأنسام الرطبة والأخيلة التي تتسارع وتتزاحم والأسئلة التي تنبثق مع وميض أضواء المحلات : " ماذا سيخامر العمال وهم ينبتون عيونهم على الوجه الذي تغيّرت قسماته بفعل مستحضر يعرضه محلّهم ؟ " .. التساؤلات والاحتمالات سارعت ببلوغنا المكان . وقفنا أمام واجهته ، متخيّلين وقفتها المعهودة تنتظرنا ... دفعنا الباب الخارجي فانقذفنا وسط حلبة الفراغ ، تحيطنا عيون نارية لاهبة . جباه متغضنة / همهمات تغيض بعضنا / كلمات توصمنا بالدعة وامتهان شرف الغير / تعنيف جاف لتسببنا في ترك الفتاة لعملها وطعن كرامتها بخنجر ريائنا وعدم حرصنا على ملاك وهبنا حبّا لا نستحقّه .

كنمرين تلاحقهما أعاصير شرسة خرجنا مندفعين . كدنا نصدم الباب الزجاجي الذي لم نره وكأننا ندخل المكان ونبرحه لأول مرّة .

أحقّاً فعلتها عبير ؟! .. أحقاً كانت فعلتنا من القباحة ما حطَّم كبرياءَها وقلبَها ومشاعرها وحياتها وصدقها وعواطفها ؟! أحقّاً تركت العمل ولن تعود ؟! وهل كان غيابُنا عنها من بابِ الغدر ؟!

ظلّت النجومُ الباكية تهشّم أنوارها الشذرية تصاحبنا أنيسةً تلك الليلة . نتحاور همساً وعتاباً ودمعاً وتأنيباً وندماً على حماقةٍ لا نعرف كيف ارتكبناها حتى سلمتنا مرافعاتُ ومحاكمات النفسِ إلى شمس الصباح .

ذلك الصباح اتخذتُ قرار البحث عن عبير بكل اتجاهات صنعاء ، تاركاً صاحبي الذي آثر أن يقبع أسير غرفته . قضيتُ أجوب الشوارع والطرقات . ادخل معارض بيع العطور ومساحيق التجميل ، وأخرج خائباً محبطاً أرمي نظراتي على الوجوه فلا أحظى بلمحة من ملامح ملاكي الضائع .. وفي المساء أعود متعباً أجرُّ الخطى فأجد صاحبي متكوراً هزيلاً . ينتابني شعور يائس فأنام على مرارة الذكرى . لكن حضور صباح اليوم التالي يمنحني طاقةً وتصميماً وحدساً بأني سأجدها ... وذلك ما حدث غب اسبوعٍ طويل .

يومذاك تركتُ " ساحة التحرير " ولوجاً إلى شارع " الزبيري " ، عبوراً إلى " عصر " ثم عودةً إلى شارع " حدّة " الرئيسي باحثاً متفحصاً ... السماءُ تحتضنُ غيوماً داكنة تتداخلُ مع ظلمة الليل وساعته المتكئة على العاشرة .. بواكيرُ رذاذٍ يهمي خفيفاً وريحٌ نَيسانية طرية متهادية تلامسُ وجوهَ المارّة القلائل إذْ أخطو وحيداً . ضجيجُ الأفكار وزحامُها تداهمُ الرأس ، والرذاذُ يأخذُ شكلَ قطراتٍ تناهت رشقاتُها عزيفاً يعتورُهُ تحذير لهديرِ راعدٍ ومطر غزير قادم دفع المارة لتوسيع الخطى هروباً ودفعني لتقمّص اللامبالاة والعبث عمداً أتابع حركاتهم التي تراءت لي بهلوانيةً ساذجة لموقفٍ لا يقتضيه إلا الانطلاق تحت هارموني الطبيعة الرخيم .. وهنالك / عند الرصيف البعيد / أمامَ واجهةِ عمارةٍ ناهضة اصطدمت نظراتي السائحةُ بقوامِ فتاةٍ تهافت على منتصفِ جذعها العلوي ورودٌ بنفسجية مع زرقةٍ طاغيةٍ لقميصٍ يهبط ملاصقاً تنّورة سوداء . حين استدارت بجذعها لمحتُ وجهاً نيراً يطوّقه شالٌ اسود .. هتف قلبي فجأة :" ذي هي عبير ! " .. حثثت قدميَّ جرياً لإدراكها أُمنّي النفسَ بلقائها مُقدِّماً عتاباً لابتعادِها المُدمِّر لنا ، أو اعتذاراً لسوءِ تصرفنا ، طالباً عودةَ السواقي لمنابعها .. لم تبق سوى بضعة أمتار تفصلني عنها .. بضعةُ أمتارٍ عندما رفعتْ يداً لعربةِ أجرةٍ مارقة توقفت لنقلها .. تركتْ الرصيف وراحت تفتح الباب وتدخل . صرخت بها : " عبير انتظري ! " .. ركضتُ خلفُ العربة لحظة هدر محركُها وانطلقت . أندفعتُ أعدو وراءها ملوِّحاً بكلتا يدي ، صارخاً كمجنونٍ داهمته موجةُ صعقاتٍ كاوية : " عبير .. عبير ! " . تفجّرت الدموع كتلاً وأنا ألمحُ العربةَ تزدادُ سرعةً ثم تتضاءل وتغيب وسط بؤرةِ ظلامٍ فاحم .

أدرتُ مفتاح الباب ودخلت . ضغطتُ زرَّ المصباح فسقطت رشقةُ نورٍ على صاحبي الذي أبصرتُه لمّا يزل مكوَّماً تحت الغطاء . فضَّلتُ أنْ لا أوقظه .. توجَّهتُ إلى المرآة لأتفحَّص الأسى المتكّدَس في العينين والحيرة المتوسدة مساحةَ الوجه ، فهالني ما رأيت .. رأيتُ شعرَ رأسي وقد استعاد _ بكل هوسٍ وإصرار – لونَه الرمادي القاتم .

بوحٌ علّها تقرأهُ :

يتقاطر فيضُ لهاثِنا الجميل ، يا عبير .. ولذاذاتُ العمرِ الهارب تنسفحُ على مذابحِ المساءات المهاجرة .. غوايات ! .. غوايات تسلبُنا طيبَ الجلسات _ أتذكرين _ وترمي بأحلامِنا على أنقاضِ شبابٍ ذبيح وأمانٍ اكتشفناها كاذبةً كذبَ السراب .. هل ستصبح لقاءاتُنا المجنونة عابرةً لديكِ _ بعد سنين _ هل ؟

صنعاء
صيف 1996

مساء الاحتراقات

كأنَّ أعواماً عَدت ...

كأنّما الليالي حبّات مسبحة سوداء تتوالى ...

كأنّي شاعرٌ قديم أرخى ذاكرته واستدعى احتراقاته وتأوهاته وأمانيه على طلول عافها أهلُها ورحلوا ، تاركين آثار خطاهم على الدروب والجنبات والأفياء . أقفُ عند مصاطب لقاءاتنا الجرداء . " حدائق السبعين " أتبينـها بيداء موحشة . رمال تمتد عطشى يعمُّها سرابٌ زحيم . تغريني لحظات الشرود باللهاث صوبه فتنبثق من بين لئلائه صورةٌ لوجهٍ موشوم بالوله ، ينده بي صوت أثير تعوّدتُ سماع نبراته المنغَّمة فأصرخ كعابثٍ مجنون : " منى !! .. منى !! ها أنتِ تعودين متراجعة ؛ كاسرةً قرارً الرحيل ؟ انتظري ! ها أنا قادمٌ إليك . سنعيش صباحات الفناءلت المشمسة ، ونعيد لسحر ليالينا الساعات الجذلى التي تعوَّدنا اختتامها على محفّات ابيضاض الأفق . " ... أهمُّ بالنـهوض وأخطو على فيض رغبة وليدة فيقطع شرودي الجميل نفيرٌ متواتر لعربات أعاقها حادث مرور عابر .

المصاطب فارغة / الطيور هاربة / الشجيرات ظمأى تشاركني محنتي وافتقاد مرفأي . تشاركني بهتان الحلم الذي لا أدري كيف تبددَّ بهذا الخطف الفائق ، وتلك النهاية المتهالكة ، وذلك المشهد الرمادي .. الكلمات الخضر التي نطقناها في كرنفالات العشق استحضرها مبعثرةً على حجر الممرّات الأسود صفراً أحرقها الجفاف ،. ضحكات منى تتناهى تردّدات ساخرة ، وذبذبات تفتقد توازنـها تتبدّى دويّاً مدوّماً .. آ .. لماذا تنفث هذي الشمس التي اعتادت احاطتنا بحنانها فحيحاً حارقاً يلفح وجهي ويلهبه ؟ .. لماذا تُثبت

نصال جمرها اللاهبة في يافوخي ؟! .. ما للهواء يستحيل سهاماً حارقة تمحق بشرتي ومساماتي مخلّفةً القسمات موحلة يحسبني الرائي مخلوقاً لا ظلاً يأوي إليه ، ولا كياناً يحتمي به من قيض هذا الصيف الطويل ؟! ..

ويأتيني الصوت الكمين حاملاً التساؤلات والدهش ، والاستغراب : هل حقّاً ذهبت منى ؟ .. هل انقضت تلك الأيام التي كانت تأتيني لتفعم القلب شهدَ الرواء ، وتغذّي الروح بترانيم صوتها الملائكي ، الموشّى بزقزقات عندليب وسط بحيرة زهور أرى لقاحها يتطاير رحيقاً فائحاً أنتشي لفعله المؤثر فأعوم مدفوعاً برغبة طاغية في الغرق العذب والموت المستديم !.. وحين أستدير متلفتاً لمرّاتٍ ، متوقّعاً مشاهدتها ألفي نظرات المارّة ترنو تلاحقني ، ماطرة سيلاً من شفقةٍ وعطفٍ لحركات غريبة تبدر منّي .

أتحرّك لأستعيد ذلك المساء الرطيب عند " ساحة التحرير " والخطى تقودني نحو دائرة البريد لأدفع برسالةٍ إلى صديق حميم غيَّبته المدن المتلاحقة وألقت به مغترباً بين أحياء " امستردام " يعتاش من رسائلي بأخبار الوطن ليغذي جوعَهُ بذكريات مدينته / مدينتنا المسترخية لصق الفرات ، وذلك الزقاق خزين أحلامنا الطفولية المستحمَّة بالنقاء ، مكمن عبثنا وألغازنا الصبيانية ، وتفتّح عشقنا البريء الذي اجحافاً بتنا نطلق عليه (حب المراهقة العابث) . صالة البريد تعجّ بالمراجعين المغتربين جاءوا ليتواصلوا مع أحبّاء لهم يقطنون مدناً نائية ، ممنّين النفس بوصول ألأخبار والأشواق والأماني . أبتاع طابعاً وأتحرك لاحدى المناضد المستديرة وسط الصالة ؛ ألصقه في زاوية المظروف ملقياً آخر نظرةٍ للتأكد من ضبط العنوان قبل تمرير الرسالة في فم أحد الصناديق المعلقة على الجدار . حولي أناس يفعلون مثل ما أفعل . وإذْ أنتهي من مهمّتي وأرفع الرأس تسقط عيناي على فتاةٍ تطالعني باهتمام . وجهها القمحي يهبني ابتسامة لا أعرف كيف أجبتُ عليها لأسمع بعدها الشفتين المطليتين بأحمر شفاه فائح : " مساء الخير ! " فيرد لساني المتلعثم ردَّ الود . لحظةً وتدور لتقترب منّي ، تسألني :

_ " كأننا التقينا قبلاً ! " ..

_ "وأنا كذلك .. إنني أعرفك ! " ..

تكمل الصاق الطابع على مظروف بيدها ، ثم تزجه في جوف الصندوق :

_ " إلى عدن ! " ..

وأرفع مظروفي ؛ أدفعه :

_ " إلى امستردام ! " .

من جيبي أستل مفتاحاً ، وإلى الصناديق المقفلة أرنو . أفتح رقماً يخصّني علّي أجد من تذكّرني ورمى لي حقائب الشوق الملأى بأخبار الأهل ولهفاتهم .

نتحرك منفضّينَ من الزحام . نطأ الدرجات الهابطة لنلفي أنفسنا نسير على الرصيف سويّةً . لم أسألها الدرب ، ولم تسألني ! .. نتخذ الطريق يساراً فندخل شارع " جمال " حيث المعارض ضاحكة تعرض مقتنياتها .. أتحسَّس لذّة اللقاء الأول وعبقه ، وأنتشي وأحسب منى (منى والسحاب .. هكذا قدَّمت نفسها ضاحكةً) هبةً تسللَّت من السماء فأمطرت القلب برذاذ الوجد وسط بهاء صنعاء الواهبة كلَّ شيء إلاّ عاطفتها الحبيسة بين أهرامات سود تتحرك بآلية وحذر ، واستحياء .

تسحبني منى من يدي لتدخلني مغارة أشذاء جدرانها مرايا وقوارير عطور شرقية قرأتُ على إحدها " خدمات معرض رياحين " .. أغرقني سديم أرائج مخدِّرة تتهافت باجنحة رحيقية . أشارت إلى عطرٍ همدي كحلي اللون . نقَّطَ البائع على ظهرِ كفِّها بضع قطرات فغمر الجو أريجٌ عميم ، حفَّ بنا إلى فضاءات ألف ليلة وليلة حيث شهرزاد تصحب شهريار المدهوش بسيولة الكلمات وسحرها ، على غيمة مخملية من أخيلةٍ تطوف به عوالم بعيدة : غابات أماني محتشدة / جزر ربيعية لا تتوقَّع نذر أعاصير ولا رياح ولا تهجسات / محفّات نفوس غائرة ومشاعر خبيئة / ألوان لا تأتي بها سوى سهوب الحلم ... ومن هناك تعود بي مغسولاً بروائح غابات فيضية . يخاطبنا البائع مبتسماً : " إنها محببّة لدى المتزوجين روّاد معرضي _ خمَّنا هكذا _ لم أستفهم منى عند خروجنا إنْ كانت أسيرة ذلك القفص السحري أم لا .

يستوقفني الوصول لمطعم " النورس " فأتسمّر وأنتصب قبالة واجهاته الزجاجية _ خلفها أبصر مناضده وكراسيّه تزدحم بالرواد .. وأرفع بصري لأرى منى تتخذ مكاننا المعهود . تبتسم / ترفع كفّاً ريشية تومىء لي كدعوة لارتقاء صالة العوائل . هناك اعتدنا الجلوس عند منضدتنا الأثيرة . أدهش لوجودها وحيدةً . أتساءل كيف جاءت ؛ هي التي غادرت صنعاء نافرة منكسرة ! . تلقّفتُ

الممر وارتقيت درجات السلم . وأمام المنضدة المحببة استقبلني الفراغ فيما رائحة منى تضوع مفعمةً المكان . أدرتُ وجهي أطالع جلوس عائلتين أفرادهما يرتشفون هناءة اللقاء ... ومثل حالم تكشَّف له زيف الآمال تهالكتُ خائباً على كرسي أطلب قدحين من عصير المانجا ، اجتراراً للذكرى . يتأملني النادل باستغراب . وإذْ يلمح بوادر أمتعاض تفضح شرر حدقتي يتحرك مسرعاً . بلحظات يعود ؛ يضعهما أمامي . . متقابلين جلسنا . هذه أول مرّة أدعوها لتناول وجبة خفيفة على مناضد مُعدَّة بجاذبية واتساق ... وجه منى يزدهي وضاءً . شفتاها كفلقتي كرز محمرتين تتباعدان قليلاً لترسمان ابتسامة طائرة وبهجة تتنامى ، تفيض بهما بحيرتا العينين حتى تنضحان بهاءً وتوهجات بدء ثائر . أحدّق فيها حاصداً سعادةً من رياض وجهها الوديع فتشيح به وقد تبرعمت مسحة هناء تجلل بستان الأهداب السود ... تتشاغل بالنظر إلى صحيفة جلبتها معي . ترفعها ؛ تروح تفردها متابعةً العنوانات المتناثرة ، حتى إذا أدركت الصفحة الثقافية لمحتها تطلق شهقةً مختزلة ؛ ثم تنطُّ برأسها : _ مفارقة ! " عبير الحلم " قصة كاتبها يحمل أسمك .

ببرودٍ مقصود أتفوَّه :

_ وما المفارقة ؟ .. القصةُ لي والكاتب أنا .

تحدّق بي .. تتفرَّس بعيني إن كانتا تشيان بشيء من المزاح . وحين وجدتني صارم القول هتفت :

_ هذا يعني أنك قاص ولم أعرف ؟

نهَضَت ؛ وأراني مضموماً بذراعيها ، وخدي الأيمن يتلقة قبلةً وسط دهشة شاب وشابة اتخذا مكاناً لائذاً .

_ إذاً ستكتب قصةً تحكي حبنا الوليد .

_ هذا يعتمد على تفاعل الاحداث التي سنخلقها بمحضِ رؤيتنا ، أو تلك التي نواجهها بغير ذلك .

كلامٌ أقرب إلى النصيحة أو أدنى من الاحتجاج هو ما سمعته :

_ دعكَ من قصص الأفلام التي لا تنتهي إلا بالرسو علند تخوم الموت أو مرفأ الزواج ، واكتب عملاً متواصلاً تبدأهُ أنتَ وتترك للقراء مهمة رسم الخاتمة عبر مخيلتهم الخاصة .

على رفيف انطفاء الشمس ؛ بعد التهام شرائح " الكنتاكي " وارتشاف عصير البرتقال ؛ خلل أنغام موسيقى غربية هادئة نهضنا منطلقين كبجعتين تحلقان في فيض فضاءٍ ثر . بين لحظةٍ وأختها تلتفت منى زارعة نظرات تتحرى قسمات وجهي كأنها لم تصدق كوني قاصّاً له قدرة التخيل وصناعة الأحداث ثم سكبها على ورق الكتابة سعياً لخلق عالمٍ يّلهب مخيلة المتلقّي ويأخذ به إلى دُنى المتعة والخيال حيث الزرع الناجز والحصاد المُنتظَر ... سألتني عن فحوى القصة فأدليت اختصاراً عن علاقة ود بين بائعة عطور ورجل قادته اللحظة غير المحسوبة للوقوف إزاءها متسمراً مذهولاً بفتنتها ونضارتها فيتفجَّر اللقاء حبّاً ناريّاً من جانبها ينتهي بتركها العمل والتواري ، واندفاع الآخر جاهداً للبحث عنها دونما أمل .

سألتني إن كان المكان حقيقياً فأتاها الرد ايجاباً ، " في لقائنا القادم سنذهب إليه " .

جاء اللقاء ووجدتني منى أصحبها لأضعها وسط " بوتيكات " أصباغ وعطور ومستحضرات تجميل مستوردة . غرقت أنظارُها في يم الانبهار متمليّةً الاصناف الراقية المشتعلة باشتهاء يصل حد هوس ابتياعها جميعاً . اقتربت البائعة الشابة من خلف معرض زجاجي . فرشت ابتسامة ناضجة وتحية استقبال أطلقتها طريةً يلفُّها الود . استقرأتُها تغمرني بابتسامة تمتزج بنظرة طويلة وغامضة . لا أدري لماذا فعلت ذلك ، ما أثار خشية اكتشافها من قبل منى . بيد أنَّ منى كانت غارقة بتفحص ومتابعة أقلام " روج " تتفاوت ألوانها ، ثم تتحوَّل لمطالعة صف علب كريمات مُرطِّبة . رفعت رأسها مشيرةً للبائعة التي ما زالت تطيل النظر بي .

_ سجّلي لنا أصابع " الروج " الأحمر والكستنائي والماروني ، وأضيفي إلى القائمة هاتين القارورتين من سائل الشامبو .

تناولت مُنى الفاتورة وتحرّكت لدفع الحساب .. دار حديثٌ عابر كانت البائعة خلاله وجهٌ موثّلِق . أبديت اعجابي باسلوب العرض ونجاح الدعايات عبر الصور المبثوثة داخل المعرض ... عندما التفتُّ لمحتُ منى تلتفت هي الأخرى تصمّغ عينيها على البائعة وبواعث شك أو استنكار يتنامى فوق مشارف الحدقتين .

أنفاس الغروب تتكاثف فيقترب الليل بينما أقتربّ أنا من مجمع " الكميم " . وبالمباشر أذهب إلى مكتبة " الشهداء " أتأملها من على الرصيف . أستدعي منى فتأتيني أنفاسها حميمية تمس وجهي وصوت رجائها لي بالانتظار . تدخل المكتبة . تشتري ثلاث نسخ من الصحيفة الناشرة للقصّة . أسألها مستغرباً : ولماذا ثلاث ؟! .. يجيبني صوتها النغِم :

_ واحدة سأقرأها كقارئة لا تعرف كاتبها . وثانية كقارئة تعيش التفاصيل مع الكاتب . وثالثة أتقمَّص شخصية بطلة القصة لأسبر صدى الانفعالات والاحتراقات التي تراودها .

أتوقّف محدِّقاً بها باندهاش :

_ انكِ تعرضين نظرية نقدية تكاد تكون غائبة عن النقاد ومتابعي الأدب .

_ لا تبالغ . ما أنا سوى قارئة . يوم ستكتب قصّتنا وأقرأها أعاهدك سأكون ناقدة لا تسلم من عنفي وتقريعي .

تطوي النسخ الثلاث ؛ تدفعها في جوف حقيبتها ... حولي أتشمم رائحتها التي كثيراً ما دعوتها أن لا تعكّرها بالمعطّرات المصطنعة . تضحك ! دوماً تتّهمني بغرابة أطواري . وعن رجائي بعدم استخدامها العطور ترد محتّجة : الناس يستهلكون تلال المال لأجل عطور تبدّل روائح أجسادهم ويأتي رأيك ليهمّش مجهوداتهم .

_ ربّما أشذُّ عنهم ؛ لكن اعلمي أنني لا أشتهي إلا عطر أنفاسك . ولا أبغي ملأ صدري بغير عبير جسدك ، فعندي هو الأشهى والأعذب أبداً .

تقهقه ثم تطأطىء رأسها فتتحرر خصلةً حبيسة من حقلِ شعرها الكلبدوني المأسور بشال يعيق انطلاقته . تهبط الخصلة على عينيها فتقبضها السبابة والابهام . وبحركةٍ رهيفة تزجّها إلى اضمامتها الكامنة .

آ.. لقد ذهبت منى !..

آ.. مَن مثلها يخلع عليَّ هناءة العيش ويدثرني برداء رموشها الدفيئة ؟.. مَن مثل قلبها يدخلني بستان البهجة ويغدق أبهاءه ولئلاءه وأمانيه ؟

في واحدة من لقاءاتنا المتكررة داخل حديقة السبعين جالسين كنّا تضمّنا مصطبة تنتصب تحت شجرة كالبتوس معرّشة تطلّعتُ إلى شفتيها المتبرعمتين ؛ وفي أذنها سكبتُ همسي : موفّقة زيارتنا لـ " عبير الحلم " . انها تقدّم لي الآن ثمرة كستناء شهية .

كركرت مُنى ! .. كركرت مثل تلميذة يثني عليها معلمها . قرّبت وجهها من وجهي لترد على همسي . تحسست أنفاسها العابقة . دنوت منها . وكان علّيَ أن أقضم الثمرة الناضجة المتأهبة للقطاف باشتهاء جنوني عابث عندما انسحبت لتدرس تأثير اللحظة على صفحة تأججّي وتوهجي ولظاي . سمعتُ عينيها تنطقان : " ليس الآن ! اتركها لوقتٍ آخر . " . تفجّرت مراجلُ الشوق داخلي . ارتفعت حمّى صاخبة . لمحَت منى ضجيج الاعتلاج والتشظّي عبر شاشة عينيَّ فقفزت هاربة . رحت أتبعها / راحت تعدو ؛ تختفي وراء أجمّة خضراء لتجد ذراعيَّ يحتويانها من الخلف ، حتّى إذا استدارت انقضضتُ على الثمرة أمتصُ شهدَها الجنائني ثم ألتهمها وسط استرخاء ظبيتي واستسلامها . يصدمني شخصٌ بغفلةٍ . أواجَه بصديقٍ يعيب عليَّ انقطاعي عن لقائي به والأصدقاء ، يستنكر عليَّ مظهري ، مُذكِّراً إيّاي بترافة ملبسي وذوقي اللذين كانا محط إطراء أقراني .

أخطو عبر دروب الروح فألمح ذلك الشاب الذي أهرقَ سنيّه بين خوالجِ الكتب ودهاليزِ المكتبات ويافطاتِ معارض الفنون وقاعاتِ المسارح المنبثّة في اختلافات المدن . ألمحهُ في جانب آخر يتنقّل من فتاة لأخرى : فتاة مراهقة لعوب / فتاة تجهل فنون الحب / فتاة قررت إحراق نفسها إنْ لم يرد على رسالةٍ كتبتها إليه ؛ وحين لم يفعل أبصرها في اليوم التالي تُسلِّم رسالةً لغيره / فتاة تركت آخرَ ليقطف بكارتها وجاءته هو ليرمِّم حُطام السفينة / فتاة بكت على تجاهلِه لها وانكفأت حاسرةً ، منهزمةً تقترن برجلٍ آخر لا تحبُّه / فتاة عاشرته لأشهرٍ طوال ثم فضّلت سيارةَ السوبر على السير خطواً / فتاة قال لها أحبّك فاعتذرت ساخرةً ؛ إذْ علَّمتها التجارب أنَّ الحبَّ مفردةٌ أستُهلِكَت نغمتها / وأخيراً وجدَ مُنى واحدة من اللائي ستُضاف لقائمة الأسماء ، لهذا قررَّ أن يعيش الساعة ؛ يعبُّ نشوتَها وينهل بكل اندفاع من فيضِ غدائرها غير عابىء بادراك المرافىء ... تكررت زيارتنا لعبير الحلم ؛ ومعها رحتُ ألمس امتعاض منى كلّما اقترحتُ رغبةً لشراء بعض الهدايا .. وأخيراً جاء الانفجار : " لماذا تُصِر على ارتياد هذا المعرض كلَّ مرّة ؛ يمكننا زيارةَ معارضَ أخرى تبيع أشياءَ أجملَ وأفخر فصنعاء مدينةٌ زاهية تستطيب العطور وتستعذبها ؟! " . تحدِّجُني بنظرةِ استفهامٍ وعتب : " أيكون لهذا المكان سحر مهيمن عليكَ إلى درجة لا تستطيع إزالة مؤثراته عن نفسِك ؟ " .. أقول محاولاً إظهار استنكاري : " لِمَ

يملأ الغيظ وجهَكِ ، ويطفح بمجرد ذكرِ هذا المكان ؟ " .. تصمت / تُطأطىء رأسها تاركةً أناملها تعبث بابزيم حقيبتها ، تفتحه ثم تغلقة .. تفتحه وتغلقه . ترفع رأسها فتصدمني سيول الدمع الهادئة تنساب على صفاء الوجنتين السمراوين .. أصرخ بها : " منى ! ألهذا الحد تتألمين وتزعجُكِ زيارة المكان ؟! لماذا تبدين عاطفيةً بهذا الشكل المدَّمِر ؟ لماذا تضخّمين الأمر جاعلةً منه هولاً لا تطيقينه ؟ لماذا تعتبرين قصةً جّلها خيال صادقة بأحداثها ؟ ما عبير سوى شخصية وهمية ارتأيتُها بطلةَ قصةٍ ليس غير .. مُنى ، أنا لكِ وحدك بكل صدقي ورغبتي ، وعبثي وانسحاقي ووجدي . أنتِ البهاء الوضّاء الذي أرشق وجودي على أمواه فيضه . أريدك عالمي المكتشَف لا تكوني كَوني المفقود وانسانيتي المُستلَبة ، بل صيري شِعريَ العذب الذي أطلقهُ في وِهاد الروح كيما أحيله أفقاً من فاكهة وخضار ومنبع خِصب وماء عذب .. آ .. لأولَّ مرّة تُفصِح منى عن جانبها المُحاط بالظل . تُضيئه / تفتح لي أبوابَ ألمها دونما سيطرة أو استحواذ يكبح عواطفها المتهالكة ... عبرَ نافذة روحها التي واربتها شاهدتٌ أقبيةً دفينة وأبصرتُ ممرات زاخرة وفضاءات متقاطعة ‘، جدرانها تُعلّق لوحات تُغرقها الكآبة ويفعمها اليأس _ جهدَ آلهةُ السريالية ومبتكروها بعرضها انموذجاً للانسان المُرهَق المتعب المغدور ، المغلوب على ذاكرته ، المأسور بهواجسه الفضيعة مُحتشِدة _ حاجبةً عيون الشمس .. آ .. منى إنَي أقفُ عند " سوبر ماركت الهدى " . ألجُه وحيداً وأخرُج معكِ بعدما ابتعتِ قارورةَ عسلٍ قُلتِ أنكِ تفضّلين ثلاث ملاعق منها كوجبة عشاء تمنحكِ صفاء الذهن مُبعِدةً عن لياليك هجوم الأفكار الرمادية ودنو الكوابيس قبل رحيلك الليلكي فوق محفّات الوسن . أنا أصغي طافياً مع مدِّ السعادة ، مبثوثاً مع موج الألفة أستدعي الكلمات تتوالى شعراً تضمخها موسيقى روحية شفيفة تنبثق من بؤر الرغبة ، ساريةً خلل الأوصال التي أحسُّها طافيةً وسط اصرار مُنى بأنها ستحرص على حبّنا باقيةً لي أبداً ، أبداً . لن يمنعها عائق .. حدّثتني برموزٍ وكلمات عن غيوم داكنة طردَتها ، وأخرى عنيدة تشاهدها تتقدَّم شطرها حاملةً نُذر أعاصير تتنبأ بتدمير حياتها وتهرس وردة الجذل النديّة ، ماحيةً فنارات الحلم / اللذة التي شيَّدتها بدءاً من أول لقاء لها بي ... أطمئِنُها : أوهام ! .. ما يعتريكِ محضُ أوهام ، تداهمُكِ مثلما تتلبّس الكثيرين من حَمَلَة تراكمات العواطف وجيشان الأحاسيس المُرهَفة ، القلِقة (لكنها كما يبدو سليلة أولئكَ المتنبئين بالكوارث قبل استحالتها واقعاً .!) ..

جاء اليوم الذي لم أُبصر منى تجلس على مصطبةٍ اتخذناها موقعاً للقاء عند أحد أركان حديقة " السبعين " حسبما الاتّفاق . انتظرتها حتى أهرقت الشمس بهاءها الذهبي وتسربلت بلون الزعفران . ثم جاء اليوم التالي وأعقبه اثنان .. هل مرِضَت منى ؟ هل تعرضت لحادثٍ ألزمها دخول المستشفى ؛ وأي سرير يضمها الآن ؟ هل ولَّد دمعها الذي سكبته آخر لقاءِ لنا كآبةً أقعدتها منكمشة لصيقة أثاث غرفتها ؟! ..

تذكّرت أننا اتفقنا أنها ستخبرني عن طريق صندوق البريد لو حدثَ طارىءٌ يعيق اللقاء .. حثثتُ الخطى إلى بريد التحرير ؛ وبكفٍّ مرتعشة فتحتُ الصندوق . تشبَّثت أصابعي بمظروفٍ لا يحمل طابعاً ، ميّزتُ كلمات منى سريعاً ... فضضتهُ :

العزيز مُراد :

اذا كانَ لكلِّ قصّة _ كما علَّمتني _ بداية يتخللها حدث وشخصية فإنَّ لها نهاية حتماً . وها هي قصة حبّنا تدرك كلماتها الختامية . ودخولاً إلى الفحوى أقول : لم أعُد أُطيق متابعة قصة " عبير الحلم " وهي تنتفض على الورق لتستحيل قبالتي حقيقةً ناجزة .. لم تكن عبير شخصية مُختلَقة كما ادَّعيت .. كلاّ . رأيتُكَ في عديد زياراتنا للمكان تغرز عينيك في عينيها كأنها صومعتك الروحية ، وتتملّى خارطة وجهها كأنها ربوعَك المبتغاة بينما هي تبعث إليك ابتسامةً خفية من وراء حجب عينيها كأنها تتقصَّد العبث بأعصابي .. تتبادلان رسائلَ ورموزاً لا تخفى على امرأةٍ طُعِنت يوماً من زوجٍ كان يمارس فعلَ ارسال شفرات الوله لفتاةٍ كانت تعمل معه في أحد أقسام عمله .. رأيتُكَ تُعيد خطيئة زوجي لترسم لوحةً تتنافر ألوانُها وتسيل لتفتح نافذةً قاتمة تقتل بؤرَ الضوء المنبعثة من حبٍّ زرعته لكَ على تخوم القلب ؛ تُعتِم الطرقات التي ارتأيت لها النور الدائم . لقد أوصلتني مُجبَرةً إلى نهايةٍ لم أكن أتوقّعها .. أدري أنكَ ستكتب قصّةَ حبّنا ومساءات احتراقاتنا ، وستنهيها بهذه النهاية التراجيدية بينما تمنّيتها مفتوحةً بهيجة . وبهذا أثبتت الأيام خطأ نظرتي ..

أدري أنكَ ستعود إلى أماكن حلمنا الجميل تبكي أطلاله ، معيداً حوارات قلناها ونحن عائمان بزورق الرفاه والثَمَل .

إذا شئت البقاء داخل حلبة ذلك السِفر المنتهي _ وهذا ما لا أتمنّاه لكّ كي تتعذَّب ولكن مع ذلك _ عُد إلى أغانٍ ردّدناها ، وأماكن زرناها . وسأعود أنا لإحيا بين تفاصيل حياة زوجٍ لا يكف عن ارتكاب الأخطاء وصورة حبيب اغتال سعادة حبيبته ليلة كرنفال حبِّهما الجميل .. ستبقى تعيش لذّة الذكرى وعذوبتها . أمّا أنا فسأبقى أتلظّى فوق جمر الخيبة والألم صاغرةً خاسرة ... إنني عائدة إليه ! إلى عدن اضطراراً .. وداعاً ! .. وداعاً !

منى

صنعاء _ يونيو / 1997

ICH LIEBE DICH

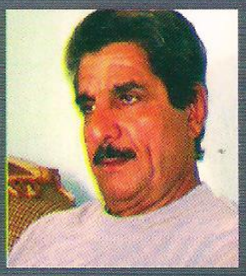

ثمّة ما يجيز للذاكرةِ افتضاض ضبـــــاب الاعوام لتمنح اللوعة الخبيئة في الأعماق شيئاً من الانسفاح على يباب العمر :

ثمّة ما يدع الروح تتبـارى من اجل ذكرى هاربــة تكيننت يوماً عند شـاطيء العمر الزاحـف وصار القبــضُ عليها كالاستلقـاء على صدر حبيبٍ رؤوم ، او كالتبـتُّل عند ربٍّ قال لا تنسوني .

وهو السرد يغدو ابـجدية القلب في تسـجيل بوحـهِ فيتشـكل ايقوناتٍ خطابية تحكي خطى شخوصٍ استلّـها السارد من دروب خلقـهِ ودفع بـها على تراتبـية زمكانية لتحـفل هذه الشـخوص بالمصداقـية لدى المتلقـي ، وحـينذاك يلجُّ هذا الاخير فضاءَ الحياة المُختَلَقة فتبدو تلك الحـياة كما لو كانت تمتلك مفاصلَ وجودِها الحيِّ ، الحق .

لقد طال تأخر صدور هذا النوع من الافضاء القصصي في كتاب ، وهي محنةٌ كبيرة نعانيها نحنُ الكتّاب . محنـةٌ لسنا المتسببين في خلقِها ورميها على قـارعة العدم ؛ لكننا نبقـى ننوء بحمل تتبُّعاتها . فهل ستبقـى كواهلنا قـادرةً على حـمل هذه المسؤولية والسير بها في درب الصبر النابض ؟

دار تراسيم للنشر والتوزيع

Taraseem@yahoo.com